خمس فوائد

كتب السياحة من أمتع المطالعات ، وأحسب أن متعتها موفورة لمن يحبون السياحة ومن يمقتونها ويحجمون عنها فرارًا من أخطارها ومشقاتها ، لأن الرحلة التى تمتلئ بالأخطار والمشقات لا خطر منها ولا مشقة فيها لمن يطالعها فى الكتب والصور ، ولأن القارئ يضيف إلى فرجته على الرحلة فرجته على الرحالة نفسه ، فإن الإنسان الذى تحفزه الحوافز إلى الرحلة الدائمة فلا يهدأ فى وطنه ولا يستقر فى سكنه هو ظاهرة أحق بالدراسة من الموقع القصى والبلد المهجور والمنظر المكشوف ، وصدقت مدام دى ستايل حين قالت إنها تمشى مئات الأميال لرؤية رجل عظيم - أو غريب - ولا تمشى مائة خطوة لرؤية منظر مونق أو مشهد عجيب .

كتب السياحة متعة لمن يقدمون على السياحة ومن يحجمون عنها ، وأمتع ما تكون هذه الكتب إذا اشترك فى كتابتها غير واحد من مشاهير السياح والرحالين ، كهذا الكتاب الذى يدور عليه هذا المقال .

كل حديث يدل على الشاغل الذى يشغل نفس صاحبه ، ويصدق ذلك على الجماعات كما يصدق على الآحاد ، فلا جرم ينطلق الحديث فى أقوال الرحالين فيدور حول الكون كله ، ثم لا يزال يعود من هذا الجانب أو من ذاك إلى موضوع السلام أو موضوع الرجاء فى زمن يقل فيه الرجاء الصادق وتكثر فيه اللهفة حتى على كاذب الرجاء .

والكتّاب الذين اشتركوا فى تأليف هذا الكتاب المسمى ببغية السياح ستة عشر : كلهم من أعلام السياحة ورواد الأقطار ، ومنهم العالم والقصصى

والصحفى والفيلسوف والباحث الأثرى والجوالة الذى لا عمل له غير التنقل من مكان إلى مكان ، وأسلوبهم جميعا ينم على خبرة بالتشويق والمشوقات ، ومن ذا الذى تشوقه الغرائب ولا يعرف كيف يشوق إليها المستغربين وطلاب « الاستغراب » ؟

يقول اللورد دنسانى الكاتب المسرحى المشهور بسعة خياله : « إن الفلكى راكب الأرض تتهيأ له فرصة دائمة للرحلة نحو مائتين وثمانين مليونًا من الأميال فى كل سته أشهر » .

ويقول العلامة جون جرستانج الذى تعرفه معاهد الآثار فى مصر والشرق الأدنى : « الآن – وأنا فى الرابعة والسبعين – أرانى مؤمنًا وثيق الإيمان بأن تعليم الناشئين على سيارتنا الصغيرة هذه أطرافًا من علم الفلك لن يقتصر نفعه على تزويد الأفراد بإدراك أصح وأصدق الأشياء وحقائق الأمور ، بل يجاوز ذلك إلى حسن التفاهم بين الأمم والشعوب » .

ويحزننى أن أقول إن معنى هذا بعبارة أخرى أن الناس لا يتركون النزاع والقتال إلا إذا وقرت فى نفوسهم فكرة عن صغر الأرض وصغر الحياة عليها ، وفهموا من هذا الطريق كما فهم المتنبى من طريقه أن مراد النفوس أهون من أن نتعادى فيه وأن نتفانى فماذا تراهم يفعلون لو فهموا أن الأرض عظيمة وأن الحياة عليها شىء عظيم ؟ وماذا تراهم يفعلون إذا نظروا إلى الحياة الأرضية بعين الإكبار ولم ينظروا إليها بعين الاحتقار ؟

وقال فرانك النجويرث وهو صحفى من الرحالين المشتركين فى تأليف هذا الكتاب : إن سكان الأصقاع الجليدية القصوى لا يكذبون ولا يتنازعون ، ولم يلبث أن قال بعد ذلك إن الحيوان فى تلك الأصقاع لا يعرف الخوف من الإنسان ، لأنه يعيش معه فى أمان .

قلت : وساء ذلك دليلاً على الفضائل الإنسانية أنهم لا يتركون الكذب والبغضاء إلا إذا خلت حياتهم من كل شىء يستحق الغش والعداوة ، وعاشوا فى جرداء قاحلة من سهوب الثلج والجليد ، ويومئذ يتساوى الإنسان والحيوان فى فضيلة الأمان .. !

وقد أوشك هذا الرحالة أن يفسد صورته التى صور بها سكان القطب الأبرياء – بل هو قد أفسدها فعلاً – حين ضرب لنا مثلاً من فلسفة التدين عند أولئك الصادقين الوادعين ! فحكى لناقصة المرأة العجوز التى بطلت معها حيلة المبشرين حتى آمنت بالهدية بعد أن أعياهم أن يسوقوها إلى الإيمان بالهداية .

قيل لها : لماذا تعبدين الشمس ولا تعبدين الله ؟

قالت : أعبدها لأن إلها أراه بعينى هو أولى عندى بالعبادة من إله لا أراه !.

قيل لها : والأشجار ، لماذا تعبدينها وهى تذبل وتموت ؟

قالت : إن الإله الذى يموت أحب إلى من الإله الذى يطويه الخفاء على الدوام ..

قالوا لها : لئن آمنت بالله لنعطينك جلدًا أبيض من جلود أجمل الأيائل فى الغاب !

قالت : الآن أسمع منكم كلامًا معقولاً .. هلموا إلى القس لأومن على يديه .. ثم أرسلت قبلتها الأخيرة إلى الشمس والأشجار .

تلك هى براءة الصادقين الوادعين .. براءة فى انتظار المحنة التى تغويها ، أو هى شر كسائر الشرور ، ولكنه موقوف التنفيذ !

ولا معنى للرحلات على العموم إن لم تكن لها عبرة كبيرة أو عبر كثيرة ، أما هذا الكتاب فأعجب عبره أن أعلام الرحلة يرحلون ولا يعرفون على التحقيق لم يرحلون .. وهكذا يعمل الناس جميعا ولا يعرفون العبث فى أعمالهم إلا يوم يتوقفون ليسألوا أنفسهم : لماذا نعانى ياترى كل هذا العناء ؟ ثم لا يظفرون بجواب ، أو يظفرون بجواب مختلف كلما أعادوا السؤال .

أترانا نرحل للفرجة والترويح عن النفس ؟ أترانا نرحل للعلم والاستطلاع ؟ أترانا نرحل فى طلب المعاش ؟؟ أترانا نرحل لتجديد الشعور والتمرس بتجارب الحياة ؟ أترانا نرحل للأنس بقوم بعد قوم ومعاشرة قبيل بعد قبيل ؟ أترانا نرحل لأننا قلقون مضطربون نبحث عن شىء ثم لا نلبث أن نعلم أننا نبحث عن المجهول ؟

فى أول كتاب من كتب المطالعة المدرسية قرأنا هذين البيتين من قطعة شعرية قصيرة :

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وتجريب وصحبة ماجد

وفى هذا الكتاب الذى أتناوله بهذا المقال أقرأ الخلاصة الخالصة من أغراض السياحة فى رأى أعلامها المشهورين ، فماذا أقول اليوم ؟ هل أقول إن كل ما قالوه تكرار لذينك البيتين ؟

يمكننى أن أقول هذا لأن الأغراض التى ذكروها للسياحة على سبيل التخمين تارة وعلى سبيل الترجيح تارة أخرى لن تخرج عما جاء فى محفوظات الطفولة الأولى : ترويح عن النفس ، وسعى فى طلب المعاش ، ومعرفة ، واختبار ، ومعاشرة لأصحاب بعد أصحاب .

فإذا قلت إننى عرفت مضامين الكتاب قبل أن أعدو التاسعة أو العاشرة ففى القول صواب لاشك فيه ، ولكنه على التحقيق لا يساوى شيئا ولا يزيد فى قيمته على الخطأ الصراح ، فلا فرق بين الجهل بالسياحة وبين العلم بها من محفوظات الطفولة ، وعبرة هذه الحقيقة مرة أخرى أن التجارب لا تنقل ولاتستفاد بالرواية ، وأن كل ما ينقل منها إنما هو ظلال وأصداء لن تغنى عن خبرة المختبرين فى مختلف الأرجاء ، ومن هنا تتعاقب الأجيال ثم لا يقال إنها تكرر على فرد مثال ، وإن ظهر لنا أنها تتشابه فى قليل أو كثير من الأحوال .

وهذه الفصول المطولات نفسها ما الفرق بينها وبين الأبيات التى حفظناها دون التاسعة أو العاشرة ؟

إننا لا نحسبه فرقًا فى الشرح والإسهاب ، ولا نحسبه فرقًا فى زيادة سبب على تلك الأسباب ، ولكننا نحسبه فرقًا يضارع ما اختبرناه من السياحة بعد أيام الطفولة ، أو يضارع ما اكتسبناه من القدرة على تخيل الغيب وقياس المجهول على المألوف ، ولا تزال وراء ذلك بقية مطوية تعرف بالعيان ولا تعرف من الصحف والأوراق ، ويحاول الرحالة أن يشرحها ويبسط القول فيها ،

فلا يزيد على وصف الآكل ما أكل من أصناف الطعام . أما شبع الجوف وسريان الدم فى العروق فمن وراء الوصف والسماع !

* * *

ويستقيم معنا التمثيل بالطعام إذا انتقلنا من غرض السياحة إلى ملكة السياحة واستعدادها ، فمن الناس من يأكل الطعام التافه القليل فيستخرج منه الدم والحرارة والقوة لسلامة بدنه وصحة أعضائه وانتظام الهضم والتمثيل فى وظائف جسده ، ومنهم من ينتقى الطعام ويتخير عناصر الغذاء ولا يفيد منها غير السقم والشكوى لأنه معتل البنية مختل المزاج ، ويحدث مثل هذا بين لرواد والرحالين فيحيط أحدهم فى النظرة العاجلة بما يقصر عنه الآخرون فى الإقامة الطويلة ، لأنه يعتمد على وحى الإلهام الصادق واللمحة الثاقبة حيث يعتمدون على السماع والعادة والعقل الضيق والنظر الكليل ، فلا يتوقف الأمر فى السياحة على الوقت الذى تستغرقه الرحلة ولا على أدوات السفر كما يتوقف على وسائل الملكة والاستعداد ، ومنها سرعة الملاحظة وحسن الاستجابة للبيئة وقوة النفاذ من ظواهر الأشياء إلى بواطنها الخفية ، وليست هذه الملكة موفورة على سواء لجميع الرواد والسياح .

يقول ناشر الكتاب فى مقدمته : « إن أناسا من طراز كارل كابيك صاحب النظرة التى لا تتهيأ لغير العبقرية الصادقة قد يتيسر لهم أن يستوعبوا حسن الإقليم وأهله فى نظرة عابرة من نافذة قطار أو سيارة ، ولكن أكثرنا لا يعدو أن يكون كواحد من أصحابنا رجال الأعمال كل ما يعلمه عن البقرة أنها شئ يوجد فى الحقول ويدر اللبن ! لأنه يراها فى حقلها ويشرب لبنها » .

وكارل كابيك الذى أشار إليه الناشر عبقرى من التشيك أمة البوهيميين قد ورث عبقرية السياحة من قومه وأضاف إليها عبقرية الفن والكتابة ، وليس بالكثير على مثله أن يعرف دخيلة الأمة فى نظرة عابرة من قطار ، لأن هذه النظرة ليست بالزاد القليل من أزواد الرحلات والأسفار سواء كان الناظر عبقريًا من طبقة الكاتب التشيكى الكبير أو إنساناً متوسط الفكرة والمعرفة . فإن الناظر من القطار يستطيع أن يرى الكثير من العلامات الظاهرة على أحوال

سكان البلاد ، وحسبه أن يرى منها دلائل الصحة والنشاط والإقبال على العمل ونظافة الثياب وأساليب المعاملة بين الناس ولهجات المخاطبة والحديث ، وأشباه ذلك من العلامات التى تنكشف للناظر من نافذة القطار وينكشف له ما وراءها من الأخلاق والقوانين والآداب الاجتماعية ، وقلما يحتاج الرحالة إلى علامات أكثر من هذه العلامات لفهم الحقائق من وراء الصور والأشكال ، وبخاصة إذا تعود الرحلة الطويلة ، وتعود معها المقارنة بين صور وصور أو بين عادات وعادات أو بين علامات وعلامات ..

غير أن المهم فيما نرى هو اختيار العلامات التى يجرى تطبيقها على قياس واحد فى جميع الرحلات والأسفار ، فإن هذه العلامات كمفتاح الصفر (أى الشفرة) الذى يترجم الكلام كله وينقله من الإيجاز والإبهام إلى الإسهاب والإيضاح ، ويحتاج كل رحالة إلى نوع من هذه العلامات فى جميع رحلاته وأسفاره ، ليجعله مقياسًا مطردًا للمقارنة والمقابلة بين مختلف البلدان والأقوام .

فالنظافة مثلاً علامة صالحة لاستطلاع أحوال الأمم على عجل ، ولكنها كثيرًا ما تكون علامة سلبية تدل على قلة أسباب التلويث ولا تدل على شدة العناية بالتنقية والتنظيف ، فليس من الإنصاف أن تحكم بقياس النظافة على أمة تعمل فى المناجم بين الفحم والشحم وأمة تعمل فى رءوس الجبال حيث لا مرض ولا غبار .

والكياسة فى معاملة الناس بعضهم لبعض علامة صالحة لاستطلاع أحوال الأمم على عجل ، ولكنها كثيرًا ما تكون تقليدًا من فعل الحضارة العتيقة خرج مع الزمن من عداد الأعمال التى تصدر عن حس وفهم إلى عداد الأعمال الآلية التى يتقارب فيها الكيس اللبق والفدم البليد .

وفخامة المساكن والطرقات علامة صالحة لاستطلاع أحوال الأمم على عجل . ولكنها قد تتساوى فى أعقاب الدول وطوالعها وقد تعطيك فكرة عن المادة ولا تعطيك فكرة عن حقيقة الروح فى الأمة ، ولا سيما حين تتشابه دلائل الطوالع والأعقاب فى أحوال العمران ..

وسلطان الحكومة علامة صالحة لاستطلاع أحوال الأمم على عجل ، لأن

البلاد التى يظهر فيها سلطان الحكومة عند كل خطوة وكل حركة غير البلاد التى تنسيك فيها وجود الحكومة أو تريك لها سلطانًا مسخرًا فى خدمة المحكومين ، ولكنها على جميع الحالات علامة قد تدلك على جيل مضى ولا تدلك على الجيل الذى أنت فيه .

أما العلامة التى أحسبها كافية وافية والتى أختارها للقياس عليها لو اخترت السياحة بين خلق الله فى مختلف البلدان فهى علامة تنكشف للرحالة فى يوم واحد ولا أخاله يحتاج بعدها إلى مزيد من العلامات والدلائل : حسبه أن يعرف من الناس قيمة الوقت وقيمة الكلمة عندهم ، وكل ما بقى بعد ذلك حشو وفضول أو شرح وتفصيل .

قيمة الوقت تدل على قيمة العمل وقيمة الحياة وقيمة الإنسان عند نفسه وعند صحبه ، أما قيمة الكلمة فتدل على قيمة الفكر وقيمة الشعور وقيمة الإقناع بين المتكلمين والمتفاهمين ، ومن موعد واحد ومحادثة واحدة تتفقان لك فى كل لحظة تستطيع أن تعلم قيمة الوقت وقيمة الكلمة فى أمة من الأمم وتستطيع أن تجزم كل الجزم أنه لا شأن لأمة تضيع أوقاتها وكلماتها ، وأنه لا بأس على أمة يصان فيها الوقت والكلام .

وإذا كان للأسفار فائدة واحدة أو فوائد عدة فمرجعها جميعًا أن تحصرها فتعلم منها أنك عشت حياتك كلها وعرفت ما تعنيه ، وانتهيت من كل رحلة موفورة الحياة موفور البيان .

عودة الحاج

لبعض الكلمات العربية رنين ساحر فى أسماع طائفة من الأدباء الغربيين ذوى الأمزجة التى تأنس إلى « الروحانية » وتلتمس النجاة من حيرة الروح فى الحضارة الأوربية الحديثة ، ومن تلك الكلمات كلمة « الحاج » وكلمة « الدرويش » وكلمة « قسمة » وكلمة « مكتوب » وما يشبهها فى الدلالة على « القدرية » والتوكل على الله .

تقرأ هذه الكلمات بنطقها العربى فى الأشعار والمقالات التى تكتبها تلك الطائفة من الأدباء ، مع أنها من المفردات التى تؤديها الترجمة الإنجليزية والفرنسية أتم أداء ، ولكنهم يحرصون على نطقها العربى لأنه هو مصدر الرنين الساحر الذى يطرق خيال الشاعر والكاتب من أولئك الأوربيين ، ومعناها فى قلوب الشرقيين هو الذى يسحرهم ويستهويهم ، وليس بمجرد المعنى الذى تترجمه المعجمات .

لعلهم أحبوا هذه الكلمات العربية لأنهم يودون لو يتجهون إلى الله ويتكلمون عليه كما يفعل الحاج والدرويش والمؤمن بالقسمة والمكتوب ولعلهم يودون ذلك لأنهم حائرون فى مفترق الطرق التى تواجههم فى حضارتهم الموحشة ولا يعرفون لها نهاية أو يميزون منها بين طريق وطريق ، فإن لم يفعلوا تخيلوا وقنعوا بالخيال ، وإن الخيال لأجمل من الواقع الذى نرضاه ، فلا جرم يلوح لهم أجمل من الواقع الذى يبغضونه ويهربون منه إلى غير مهرب معلوم .

أندريه جيد الذى قضى نحبه منذ أسبوعين أحد أدباء الغرب المفتونين بتلك الكلمات ، واسم « الحاج » هو عنوان قصة رمزية من قصصه التى ألفها فى سن

النضج وأودعها أسرار قلبه وفكره وهو يناهز الثلاثين ، وربما أغراه باختيار الاسم تردده على الجزائر ومعيشته زمنًا بين المسلمين ، ولكنه لولا الحنين إلى موضوع الكلمة لما تعلق بلفظها ، لأن الذين يزورون الشرق ويسمعون هذه الكلمة ثم لا يذكرونها بلفظها ولا بمعناها غير قليلين .

من هو هذا « الحاج » بطل القصة الرمزية التى ألفها « جيد » فى المرحلة الوسطى بين الصبا والكهولة ؟

إنه مثله شاب « يغنى » ويعشق فنه وينشد قصائده للناس فى المحافل والأسمار .

رأى أميرًا مطاعًا على رأس قافلة تدين له بالحب وتترسم خطاه ، فمشى فى القافلة يغنى لها ويطربها ويبدع لها القصص والأساطير ، وراق الأمير غناؤه فاصطفاه وكشف له القناع عن وجهه ، وكان محجبًا عن الأنظار لم تقع عليه عين أحد فى القافلة غيره ، فجن بذلك الوجه الذى يشبه جمال السماء ولا يشبهه جمال أرضى مما تقع عليه العيون ، وتعاهد الأمير والحاج على الصدق والإخلاص فعلم كل منهم وجهة صاحبه ، وفهم « الحاج » لأول مرة أن الأمير يجهل معالم الطريق ولا يدرى كيف ينتهى إلى الغاية التى يتوخاها ، وأنه يعتمد عليه كى يتخذ من أغانيه وأحلامه قبسًا يهتدى به فى التيه ، ويتعلم منه مسالك الدرب المجهولة وإن صاحب الأغانى والأحلام لأجهل من قائده بالتيه !

ويهديهم الأمل إلى سراب ، ثم يهديهم السراب إلى نهر بعيد ، ثم يبلغون النهر فإذا هو وحل وكدر وماء ملح يعافه الظمآن ويرتد عنه بغلّة الظمأ والحسرة ، فينتهى أجل الأمير ويموت محسورًا كسير الفؤاد ، ويكتم الحاج نبأه ليرجع بالقافلة آمنًا عليها وعليه أن تفتتن وتتمرد ، ثم يعود إلى محافل السمر ومجالس الغناء يلهيهم بلذاتها ويشغلهم بالقصص والألحان عن أميرهم وكعبتهم وما انتهى إليه مطافهم ، وهم يحسبون أنهم لا يزالون فى الطريق وراء الأمير إلى الكعبة والمطاف !

من هو الأمير ؟ هو الروح .

ومن هو الحاج ؟ هو الخيال .

ومن هم حجيج القافلة ؟ هم هذا النوع الإنسانى فى استسلامه الأبدى لمن يقوده تارة باسم الضمير وتارة باسم الفن والجمال .

ويخطر لتراجمة الرموز الذين يفسرون كتب « جيد » أنه يصف نفسه حين يصف « الحاج » فى هذه القصة ، وأنه يريد بها حيرة الروح والخيال معًا فى الرحلة إلى عالم الكمال ، فلا تزال الروح تهتدى بالخيال ولا يزال الخيال يهتدى بالروح ولا ينتهى كلاهما فى الرحلة إلى النهر الموعود الذى ينقع الغلة ويريح من وعثاء التيه المجهول ، فإذا يئس الروح مات أو عاش جسدًا بلا روح ، وإذا يئس الخيال تعزى بالصورة عن الحقيقة ، ووجد فى لذات اللهو والهوى ما يشغله وينسيه .

ويجوز أن يكون « جيد » قد أراد ما عبره المفسرون من هذه الرؤيا الفنية ، ولكن وصف « الحاج » يصدق على « جيد » فى حياته الروحية وحياته الحسية على سبيل اليقين لا على سبيل الاحتمال .

ففى سيرته كثير من دلائل الطموح إلى المثل العليا والقيم الروحية . وفيها كذلك كثير من دلائل الإسفاف والخضوع لغواية الحس والمتعة الرخيصة .

فى حياته مقاومة صادقة وفيها استسلام معيب ، ومن صدقه المفرط أنه يقول ما يعيبه ويعيب وطنه ولا يبالى القدح والثناء إذا اعتمد الصراحة فى بيان ما يراه ، ومن استسلامه أنه يجرى مع هواه حين يملى له الهوى مخالفة الطبع ومخالفة العرف ومخالفة الدين ، ويغالط نفسه فى شذوذه فيحسب أن هذا الشذوذ مسألة من مسائل التكوين الجسدى لا شأن به للعرف الاجتماعى ولا للأخلاق المصطلح عليها بين الناس .

رأى فى إفريقيا مظالم الاستعمار فلم يكتمها ولم يتردد فى الإنحاء عليها حتى استفز الأمم الأوربية إلى طلب التحقيق فى تلك المظالم ، على غير ما ترضاه حكومة بلاده .

وذهب به الرجاء أول الأمر إلى مشايعة الشيوعية لعلها هى التجربة الموعودة التى تحقق الأمل فى نصرة الضعيف وإنقاذ العالم من شرور المال والاستغلال ، فلما رأى التجربة بعينه فى البلاد الروسية خاب رجاؤه وأعلن حقيقة ما رآه ،

غير حافل بالثناء الذى سيفقده ولا بالشتم الذى سينهال عليه .

وقضى حياته يحسن إلى الفقراء ويأخذ بأيدى المحتاجين من الكتّاب والفنانين ، وينفق ماله على نفسه فى غير سرف وينفقه على غيره فلا يقتصد فى الإنفاق متى وجب الإنفاق على مستحقيه .

ذلك هو « الحاج » حين يمشى فى ركاب « الروح » مفتوناً بجمال « الأمير » المقنع الذى كشف له عن جماله كما كشف له عن حيرته وضلاله .

أما « الحاج » الذى يتعوض من هداية الروح بأغانى الخيال ولذائذ الحس ومجالس اللهو والسمر فهو « أندريه جيد » فى شذوذه واستسلامه لأهوائه ، وفى عجزه عن تبين الحقيقة من وراء ذلك الشذوذ وذلك الاستسلام ، ولولا غلبة الهوى لما فاته أن الطبيعة تأنف من المسخ فى تكوينها قبل أن يأنف منه العرف والشريعة ، وأن عصر « التحليل النفسانى » الذى عاش فيه قد سجل على ذلك الشذوذ عيوبه وكشف منها عن مساوئ فى الطوية ينكرها العقل وينكرها الذوق ولا يقتصر إنكارها على تقاليد المجتمع وأوامر الأديان ، ولم يكشف العرف من مساوئ المتأنثين بعض ما كشفه التحليل النفسانى من رذائل المحاك والتبجح والالتواء وخبث النية فيما بطن وما ظهر وما يقصدونه ولا يقصدونه من الأعمال والمعاملات .

ولقد كان « أندريه جيد » ظاهرة مستغربة فى جميع أطواره ولم تكن غرابته مقصورة على أطواره الخلقية دون غيرها ، فقد كان طفلاً هزيلاً فعاش إلى الثانية والثمانين ، وكان تلميذًا متخلفًا فأصبح فى طليعة الأدباء المعاصرين ، وكان من أسرة ذات مال فنشأ على المذهب الاشتراكى يتطرف فيه ويعتدل كلما تداولته التجارب بين التطرف والاعتدال ، وكان نموذجًا للفرنسى الذى يتمثل فيه مزاج قومه فمات وهو داعية « العالمية » التى تثور على طوابع الأجناس وفواصل الأوطان .

وكثير من هذه الخصائص موروث ظاهر الدلائل فى أسرته وكبراء قومه ، ومنهم الاقتصادى المشهور شارل جيد الذى جمع بين اليسر والاشتراكية والتدين والمحافظة على القديم ، فاختار حزب « الاشتراكيين المسيحيين » على غيره من

الأحزاب التى تعالج نظام الاجتماع فى البلاد الفرنسية وكان مثلاً آخر من أمثلة الحدة والأناة والتطرف والاعتدال .

وقد كان آل جيد جميعًا من المتدينين على اختلاف المذهب بين أمه وأبيه ، فجاءت نشأته فى أسرته وفى تكوين بنيته وفى عصره المضطرب وبيئته القومية التى يتقاذفها التمرد والنكسة إلى القديم مثالاً لكل نشأة تتلاقى فيها هذه الموافقات وهذه المفارقات .

* * *

قالت لجنة نوبل حين منحته جائزة الأدب قبل أربع سنوات إنها تخصه بها فى ذلك العام لأن له تواليف « روحية الأفق فنية مهمة كشف فيها مشكلات النوع الإنسانى وأحواله نازعًا فيها منزعًا من حب الصدق لا يتهيب ، مشفوعًا بالإدراك النفسى الصحيح » .

ولم تخطئ لجنة نوبل فى صفة من هذه الصفات التى عززت بها حكمها ، ولكنها قوبلت مع هذا بالاستغراب ممن يعرفون حرصها على التقاليد والآداب المصطلح عليها فى المجتمعات ، وأبديت مثل هذا الاستغراب حين كتبت عنه ، فأراد بعض الإخوان أن يخرجنى من ذلك الاستغراب بسؤال ينقل الأمر من الرأى إلى العمل وقال لى : « هل كنت تأبى عليه الجائزة لو كنت من المحكمين ؟ » .

قلت : نعم ! إن الرجل « شخصية » قبل أن يكون عبقرية فنية أو داعية إلى الإصلاح ، فليس هو فى الصف الأول من أصحاب الآراء أو أصحاب القرائح أو أصحاب الأعمال ، وأبرز ما فيه أنه صورة من الأنماط « الشخصية » النادرة ، وهى بهذه المثابة أهل للدراسة وليست أهلاً للتمييز والتعظيم ، وأيًّا كان الرأى فيه اليوم فقد بلغ من حجته خاتمة المطاف ، وعند التاريخ ميزان الحسنات والسيئات الذى يحاسب به هذا « الحاج » الذى عاد من رحلته فى عالم الفناء .

فيلسوف ، وقصاص

قبل سنتين اقترحت مجلة الهلال أن أكتب فيها عن الفيلسوف الأوربى الذى أرتضى كتابته وأعتبره قدوة للمفكرين فى عصره ، فلم أتردد فى الكتابة عن برتراند رسل الذى يجمع بين الفلسفة والعلوم والرياضة ومذاهب التربية والاجتماع ، ويضرب به المثل فى حرية الرأى والجرأة على مواجهة التيار العرم الذى يخالف رأيه ، ولو تألبت عليه أمم وحكومات .

ومنذ شهور أعلنت لجنة نوبل جائزتها الأدبية عن سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٤٩ التى أجلت منح جائزتها إلى السنة التالية فكانت جائزة سنة ١٩٥٠ من نصيب برتراند رسل وجائزة سنة ١٩٤٩ من نصيب وليام فولكنر الروائى الأمريكى المعروف عند قراء القصص ورواد الصور المتحركة .

أما برتراند رسل فهو أكبر من الجائزة ، وأما صاحبه القصاص فلا تناسب بينه وبين الفيلسوف فى سعة الأفق ورسوخ القدم وجرأة الرأى وشيوع التواليف ، ولكنه أفضل من كثيرين نالوا هذه الجائزة الأدبية فى السنوات الماضية ، وجانب الفضل فيه من الوجهة الإنسانية أعظم وأحق بالتكريم من جانب الأدب الرفيع والفن الجميل .

ونحسب أن برتراند رسل هو الفيلسوف الثالث الذى استحق هذه الجائزة من لجنة نوبل خلال خمسين سنة ونيف . أما الفيلسوفان الأولان فهما « يوكن » الألمانى وبرجسون الفرنسى ، وكلاهما من الفلاسفة المثاليين المؤمنين بالقوة الإلهية والروح ، وكلاهما موفور فيه شرط الجائزة من حب السلم وخدمة الإنسانية والإيمان بالمثل الأعلى .

لكن برتراند رسل أصدق من كلا الفيلسوفين عملاً فى هذا المجال ، فإنه أعلن المقاومة للحرب العالمية الأولى .. وتعرض للفصل من وظيفته فى الجامعة وللحكم عليه بالحبس والغرامة لدعوته إلى السلم ووقف القتال ، ولقى فى معيشته عنتاً شديدًا من جراء هذه الخطة الجريئة ، ولاحقه سخط الشعب الإنجليزى سنوات بعد انقضاء تلك الحرب العالمية ، فلما رشح نفسه لمجلس النواب عن حزب العمال بعد انقضاء الحرب بثلاث سنوات تضافرت القوى على محاربته وإحباط دعوته وانهزم فى المعركة الانتخابية أمام بعض النكرات .

وقد كان ترشيح الرجل نفسه عن حزب للعمال مفارقة من مفارقاته الكثيرة التى لا تحصى ، إذ ليس فى الدولة البريطانية من هو أعرق نسبًا من هذا المرشح عن الطبقة العاملة ، لأنه حفيد الأيرل جون رسل . والأيرل جون رسل هذا هو ثالث أبناء الدوق السادس من دوقات بدفورد ، وهم أعرق المعرقين فى البيوتات البريطانية . فمن المفارقة أن يتقدم هذا النبيل العريق إلى البرلمان باسم العمل والعمال ، وقد دخل الآن دار البرلمان عضوًا فى مجلس النبلاء ولكنه كان يفضل أن يدخله مع الشعب ، لأنه قضى حياته يكسب من كده وكدحه ولا يتطلع إلى رزقه من الميراث .

وعلى نقيض رسل كان الكاتب الأمريكى فولكنر الذى منحته لجنة نوبل جائزتها عن سنة ١٩٤٩ فإنه لم يلبث أن اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى حتى تطوع للقتال فى فرقة الطيران الكندية ، وذهب إلى ميادين فرنسا للاشتراك فى الغارات الجوية ، وكانت هذه المشاركة منه عن إيمان بقضية الحرية ولم تكن عن طمع فى الكسب والشهرة ، لأنه معروف حتى اليوم بالزهد فى المال والجنوح إلى العزلة والاعتكاف .

ولا شك أن لجنة نوبل نظرت إلى قلمه ولم تنظر إلى أسلحته ومقذوفاته . فإن قلمه يقاتل ويناضل ، ولكن فى سبيل المظلومين والضعفاء ، ومنهم زنوج الجنوب وزرّاعه المتعبون المحرومون فليس بين الكتاب الأمريكيين من هو أقدر من فولكنر على تصوير البؤس الذى يعانيه الزنجى فى الجنوب ، أو يعانيه الفلاح الأبيض فى مزارع أهل اليسار وأصحاب الضياع الواسعة هناك .

ولد فولكنر فى ولاية مسيسيبى ونصف سكانها على وجه التقريب زنوج مضطهدون ، فجعلهم من موضوعاته المفضلة فى رواياته وحكاياته ، وعرضهم لقرائه نفوسًا حية تألم من الشقاء وتؤلم الشعور الإنسانى الذى يطلع على ذلك الشقاء ، ونشر لقراء الإنجليزية صفحة من الحياة الأمريكية لا تشرف الأمريكيين ولا ترضيهم ، فلا جرم يحسب بعض النقاد أن اختصاصه بالجائزة واختصاص زميله سنكلر لويس من قبله تحية تبكيت وتأنيب للأمريكيين وليست تحية إعجاب وتقريظ للفن الذى يبدعونه . فإن هذين الكاتبين على الخصوص أشد الكتاب إنحاء على النفاق والقسوة فى الحياة الأمريكية العصرية ، فكان سنكلر فى الشمال ينحى على نفاق التجار وأدعياء الدين . وكان فولكنر فى الجنوب ينحى على نفاق الزراع وأصحاب التقاليد من كبار الفلاحين ، وتحية اللجنة لهما تحية لها معناها بهذه المثابة ، فهى تشهر بالنفاق من طريق الثناء على منكريه والساخرين بذويه .

ولعل لجنة نوبل قد ألمعت إلى هذا الغرض بأسلوبها الذى لا تستطيع أن تتجاوزه فى الصراحة أو التلميح ، وهى كما يعلم القراء هيئة عالمية تبشر بالسلام وتتجنب الجهر بالملام ، فقد قالت فى سبب اختيار فولكنر لجائزتها المعطلة أنها تمنحها إياه « لقوته واستقلاله الفنى فيما ساهم به فى مجال القصة الأمريكية الحديثة ، فكان هذا الموضوع الاجتماعى هو الجانب الإنسانى الذى استحق به التكريم والتنويه » .

وحقيقة الأمر أن الجانب الإنسانى أبرز فى هذا الكاتب من جوانبه الفنية ، لأنه لا يلفت النظر ببلاغة أسلوبه فى اللغة الإنجليزية ولا يروع القارئ بالخيال المحلِّق أو الحبكة المتقنة أو الإلهام المطبوع ، وأحسن ما فيه أنه يحلل ويؤثر بتحليله ، ومن همه على ما يظهر أن يتوخى أسلوب « دستيفسكى » الكاتب الروسى العظيم ، وهم من أجل هذا يلقبونه بدستيفسكى الأمريكيين ، جريًا على سنتهم التى أشرنا إليها فيما مضى من التشبه بأدباء العالم القديم .

وذكرت اللجنة سبب اختيارها لبرتراند رسل فى سنة ١٩٥٠ فلم تذكر مزية

فنية أو رسالة محلية ، بل توسعت جدًّا فقالت إنها تمنحه الجائزة لكتاباته المحيطة الخطيرة التى تمثل فيها رسولاً للإنسانية وحرية التفكير .

ولم تذكر اللجنة قط سببًا أجل من هذا السبب لمن اختارتهم من الفلاسفة أو القصاصين ، وهم أكثر من اختارت لجائزتها الأدبية منذ خمسين سنة ، ومع هذا نعتقد أنها أعطته بعض حقه ولم توفه الحق كله . لأن مزاياه العقلية والثقافية والشخصية أكثر من أن تحصرها كلمة تقدير فى بضعة سطور ، وإنها لجديرة أن تغطى كل عيب فيه . وليست عيوب الرجل بالقليلة . بل لعله كان كبيرًا فى عيوبه كما كان كبيرًا فى مزاياه .

ويندر بين الفلاسفة من تهيأت له عوامل النضج الفكرى كما تهيأت للفيلسوف رسل من جوانبه العملية وجوانبه الدراسية ، فأكثر ما يكون الفلاسفة من أصحاب النظريات ودعاة الحكمة على الورق أو فى عالم الأخيلة والمثل العليا ولكن برتراند رسل بلغ نضجه بالتجربة كما بلغه بالدراسة ، فجرب اليتم وهو فى الثالثة ، وجرب معيشة القصور كما جرب معيشة المساكن المأجورة ، وجرب الحياة الزوجية ثلاث مرات . وجرب المرض غير مرة ، بل جرب الموت مرة وقرأ نعيه وهو بقيد الحياة ، وراقه من ثم أن يكتب نعيه بقلمه فكتبه ووصف نفسه فيه على عادته من الصدق والسخرية ، فإذا نشرته الصحف غدًا فقد تزيد فيه إلى جانب الثناء ولا تزيد فيه شيئًا إلى جانب القدح والهجاء !

وتجاربه للأمم والبلاد كتجاربه للآحاد والطبقات ، فقد ساح فى أوربا من أقصاها إلى أقصاها . واختبر البيئات الروسية والصينية وعلّم الطلاب الآسيويين والأمريكيين وعاشر أبناء الأمم معاشرة العطف والمودة ، وكان عطفه على الدوام وقفًا على الضعفاء المغلوبين دون الأقوياء المتغلبين .

وقد تمرس بقضايا السياسة كما تمرس بمشكلات الاجتماع ، ومن القضايا التى تصدى لها بحملاته قضية مصر ومراكش بعد الاتفاق الذى سموه بالاتفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا العظمى . وهو الاتفاق الذى تعاقدت فيه الدولتان على تبادل الأعضاء والموافقة ، فلا تتعرض فرنسا للاحتلال الإنجليزى فى البلاد المصرية ولا تتعرض إنجلترا للاحتلال الفرنسى فى البلاد العربية . فأعلن

الفيلسوف برتراند رسل يومئذ مخالفته لحكومة وطنه وأشفق على السلم فى العالم من جرائر ذلك الاتفاق المشئوم .

قلنا فى مقالنا عنه قبل سنتين إن « المصرى الذى يكتب عن برتراند رسل لا يعييه أن يلتمس فى ترجمته مناسبة مصرية ، أو مناسبات مصرية . فإن حملته الشعواء على الحرب العالمية الأولى كان فحواها أن سياسة اللورد جراى فى القضية المصرية علة من عللها الظاهرة ، وأن اتفاق إنجلترا وفرنسا على مسألتى مصر ومراكش كان بمثابة الفتيل الذى سرت فيه النار حتى بلغت مكمن الانفجار بعد سنوات » .

كذلك كان رأى الرجل فى سياسة الاستعمار كما ابتلى بها المصريون والمراكشيون ، وأن أحق مناسبة أن يذكر فيها بالخير لهى المناسبة التى تؤدى إليه بعض حقه ، ويتمنى فيها المنصفون أن تؤدى الحقوق لأهلها من المغلوبين ، وفى طليعتهم أبناء الأطلس وأبناء وادى النيل .

من تاريخ إيران الحديث

تتابع على عرش إيران فيما بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين شاهات ضعاف فتنتهم زخارف الحضارة الأوربية فأسرفوا على أنفسهم وعلى أمتهم فى البذخ الفارغ والأبهة الباطلة ، وبددوا خزانة الدولة على الشهوات ، فضاعفوا الضرائب ثم استنفدوا كل ما جمعوه منها ، فباعوا مرافق البلاد وأفرطوا فى منح الرخص والامتيازات التى تجور على سيادتها وتسلم زمامها للدول الأجنبية ، وعلموا أن ذوى الرأى ينكرون عليهم سياستهم فأقصوهم عنهم واستعانوا بالسفلة وخدام الشهوات ، وقال واحد منهم - وهو ناصر الدين شاه - إنه يريد وزيرًا إذا سمع ببروكسل لم يدر هل هى قرية أو كرنبة ! ففسد الأمر كله بين ترف الأمير وجهل الوزير ، وكان المصلح الكبير جمال الدين الأفغانى بقيد الحياة فى تلك الفترة ، ينشر دعوته لتنبيه المسلمين وتحذيرهم من السيطرة الأوربية فأعياه أمر الحكومة الفارسية ولقى منها الضرر الشديد حين اجترأ على تذكيرها وتحذيرها من عواقب جهلها ، وقد كان يعلم مكان الأئمة أصحاب الاجتهاد من علماء الشيعة فترك نصيحة الأمراء والوزراء واتجه بالنصيحة إلى إمام المجتهدين ميرزا حسن الشيرازى الذى كان يقيم أحيانًا بجوار ضريح الحسين فى أرض العراق العثمانية ، فكتب إليه كتابًا يتلهب غيرة وغضبًا ، وألقى عليه التبعة فيما أصاب الأمة الفارسية من جراء سكوته وسكوت أمثاله ، وقال له فيما قال : « إن الأمة الإيرانية بما دهمها من عراقيل الحوادث التى آذنت باستيلاء الضلال على أهل بيت الدين . وتطاول الأجانب على حقوق المسلمين ، ووجوم الحجة الحق - إياك أعنى - عن القيام بناصرها وهو حامل الأمانة والمسئول عنها يوم القيامة ، قد طارت نفوسها شعاعًا وطاشت عقولها

وتاهت أفكارها ووقفت موقف الحيرة وهى بين إنكار وإذعان وجحود وإيقان لا تهتدى سبيلاً »

ثم أخذ فى إحصاء المنافع التى باعها الشاه فقال « إنه باع الجزء الأعظم من البلاد الإيرانية ومنافعها لأعداء الدين : المعادن والسبل الموصلة إليها والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ، والخانات التى تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التى تتشعب إلى جميع أرجاء المملكة بما يحيط بها من البساتين والحقول .. نهر الكارون والفنادق التى تنشأ على ضفتيه إلى المنبع وما يستتبعها من الجنائن والمروج والجادة من الأهواز إلى طهران وما على أطرافها من العمارات والفنادق والبساتين والحقول ، والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين .. وحكر العنب للخمور وما تستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع فى جميع أقطار البلاد ، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل ، والبنك وما أدراك ما البنك ؟ هو إعطاء زمام الأهالى بيد عدو الإسلام واسترقاقه لهم واستملاكه عليهم وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان » .

ولم يكن جمال الدين الأفغانى جذوة ملتهبة من الحماسة وحسب كما يحسبه بعض السامعين عنه على غير معرفة به ودراسة لحقيقة دعوته ، بل كان يقرن الحصافة بالحماسة وينصح ولا ينسى ضمان العمل بالنصيحة ، فأضاف إلى ما تقدم أن الدولة العثمانية التى كان المجتهد الأكبر يقيم كلما شاء فى بلادها لن تنكر منه هجومه على حكومة الشاه ولن تسلمه إليه إذا احتمى بحوزتها ، فقال « ثم أضيف للحجة قول خبير بصير أن الدولة العثمانية تتبجح بنهضتك على هذا الأمر وتساعدك عليه ، لأنها تعلم أن مداخلة الأفرنج فى الأقطار الإيرانية والاستيلاء عليها تجلب الضرر إلى بلادها لا محالة ، وأن وزراء الإيران وأمراءها كلهم يبتهجون بكلمة تنبض بها فى هذا الشأن ، لأنهم بأجمعهم يعافون هذه المستحدثات طبعًا ويسخطون من هذه المقاولات جبلة ، ويجدون بنهضتك مجالاً لإبطالها وفرصة لكف الشره الذى رضى بها ..

وأثار خطاب الأفغانى غيرة المجتهد الأكبر فأصدر فتواه بتحريم تدخين التنباك واستنكار تلك الصفقات ، فصنعت فتواه صنيعها وبلغ من أثرها أن الشاه طلب فى قصره نرجيلة يدخنها فلم يجدها ، وقيل إنه تعود أن يدخن النرجيلة المزدوجة مع الملكة فوجدها مضربة عن التدخين فى اليوم التالى لصدور الفتوى ، وانتهى الأمر إلى إلغاء امتياز التنباك وتعويض الشركة الأجنبية بنصف مليون من الجنيهات الإنجليزية .

ولم تمض على هذه الفتوى بضع سنوات حتى هبت الأمة الفارسية بزعامة العلماء تطلب حكومة الشورى أو الحكومة الدستورية التى نص عليها القرآن الكريم ، فأذعن الشاه على مضض ، وصدر الدستور الإيرانى سنة ١٩٠٦ وفيه يحرم على الحكومة أن تمنح الشركات امتيازًا بغير موافقة المجلس النيابى ، ثم أضيف إليه بعد سنة واحدة ملحق ينص على تأليف هيئة من المجتهدين تتولى المراجعة والتوفيق بين الأحكام الدينية والتشريعات الحديثة ، ولا يجوز المساس بهذا الأصل الدستورى إلى أن يظهر الإمام الموعود الذى يؤمن الشيعة الإماميون برجعته ، ويدعون الله أن يعجل فرجه كلما أشاروا إليه فى الكتابة أو الحديث .

وقضى الدستور بإنشاء مجلسين أحدهما للأعيان والآخر للنواب ، وأن يكون مجلس الأعيان مؤلفًا من ستين عضوًا نصفهم معينون ونصفهم منتخبون ، وأن ينوب خمسة عشر من المعينين عن العاصمة وخمسة عشر عن الأقاليم ، ولكن مجلس الأعيان لم ينتخب ولم يجتمع قبل السنة الماضية ، وظل نفوذ المجتهدين غالبًا عليه بعد انعقاده ، فتقرر أن يكون أعضاؤه جميعا مسلمين إيرانيين ، وتوسط مجلس النواب فاقترح تعديل هذا الشرط بحيث يسمح بتمثيل الطوائف الصغيرة ، ومنها الصابئون والمسيحيون واليهود ، وأجاز تعديل الدستور بموافقة المجلسين أن يحل مجلس الشيوخ كما يحل مجلس النواب .

هذا التاريخ القريب بطانة لازمة لفهم الحوادث الأخيرة التى أفضت إلى القرار الصادر من المجلس بتأميم شركات النفط فى البلاد الإيرانية ، وهو قرار يعيد إلى الأذهان فتوى المجتهد الأكبر قبل خمسين سنة بتحريم الامتيازات التى

تستباح بها مرافق الدولة ، ولكنه فى هذه المرة إجماع يتضافر عليه رجال الدين ورجال الجبهة الوطنية ، ولا يخالفه الساسة المعارضون له من حيث المبدأ والقاعدة ، بل كل خلافهم له أن يلتمسوا مخرجًا من المشكلة المالية أو السياسية التى تترتب عليه .

وليس الخلاف الأخير بين الدولة الإيرانية وشركة النفط الإنجليزية أول مشكلة حدثت بينهما بعد الحرب العالمية ، فقد بدأ الخلاف منذ سنتين ، واتفقت الشركة وحكومة إيران على زيادة الحصة من أربعة شلنات إلى ستة شلنات عن الطن الواحد ، وأن تدفع الشركة لحساب سنة ١٩٤٨ ثلاثة ملايين وستمائة ألف جنيه أسترلينى ، وأن ترتفع ضريبة الطن من تسعة بنسات إلى شلن ، وأن تدفع الشركة لحساب هذه الضريبة فى السنة المذكورة ستمائة ألف جنيه ، وأن تستولى الخزانة الفارسية على خمس الأرباح قبل خصم ضريبة الدخل للحكومة الإنجليزية ، وتقدر هذه الحصة بخمسة ملايين ، وأوشك هذا الاتفاق أن ينفذ بموافقة المجلس لولا صدور أمر الحل قبل عرضه عليه .

على أن العلاقات الاقتصادية بين إيران والحكومة الإنجليزية لا تنحصر فى اتفاق النفط والنزاع على حصصه وأتاواته ، بل هناك مشكلة تشبه مشكلة الأرصدة الإسترلينية فى بلادنا ، وهناك مسألة البنك الذى أشار إليه جمال الدين فى خطابه وانقضت مدته منذ سنتين فتجدد الاتفاق عليه باسم « البنك البريطانى لإيران والشرق الأوسط » وهناك مشروعات ترتبط بإنجلترا كما ترتبط بالولايات المتحدة ، كمشروع السنوات السبع ومشروع الإعانة للبلاد المتخلفة ، وما يدور حول هذه المطالب وتعتمد الدولة الإيرانية فى تدبير نفقاته على أرباحها من شركات النفط على التخصيص .

وأعجب ما فى الأزمة الإيرانية أنها تتسع للنقائض فى تفسيرها أو تفسير العوامل التى تواطأت على تدبيرها ، فالأمريكيون والإنجليز يتهمون الشيوعيين ، والشيوعيون يتهمون الأمريكيين ، والأخبار تتواتر باتفاق الأضداد على الابتهاج بما حدث أو سيحدث من تأميم الشركات ، وبعض هؤلاء

الأضداد حزب المجتهدين وحزب تودة المسخر للشيوعيين ، وكلا الحزبين للآخر عدو مبين .

أما أن الشيوعيين يرحبون بالتأميم فنقول معقول ، لأن التأميم يوافق مبدأهم ويحرم الإنجليز نصيبهم الكبير من نفط إيران الذى حصلوا على رخصته ومن نفطها الذى يطمعون فى الحصول على رخصه بعد حين .

وأما أن الأمريكيين يرحبون بالتأميم فقد يكون سببه أن الدولة الفارسية سوف تقترض من الولايات المتحدة أموالاً لإدارة الآبار وتعويض الشركة الإنجليزية . وأنها تستعير منها خبراء النفط والهندسة والإدارة ، فكأنما انتقلت الآبار إلى حوزتها من هذا الطريق .

ولا حاجة إلى البحث عن علة لابتهاج رجال الدين ورجال السياسة الوطنية بالكسب الذى يعود على البلاد من هذه الثروة الطبيعية ، وبالحرية التى يرجونها جميعًا من استقلال الوطن بشئونه الطبيعية ، فذلك ما يتمناه كل إنسان لوطنه ويتحين الفرصة لتحقيقه حيثما يستطيع .

وإنما تأتى الأزمة من حيرة الساسة بين الطرفين عن اليمين واليسار ، فمن جانب اليمين طائفة كبيرة تستمد قوتها من العقيدة ومن التقاليد الموروثة وتحاول الحكومة أن تمنع بعض هذه التقاليد كتعذيب الدراويش أنفسهم فى المواكب وعرض الشعائر فى الطرقات فلا تستطيع ، ولكنها كذلك لا تستغنى عن هذه القوة لأنها السد القائم فى وجه المفسدين من دعاة الهدم والتخريب .

ومن جانب اليسار طائفة الشيوعيين المسخرين بغير حياء ولا مداراة لتذكير الإنجليز والأمريكيين بالخطر كلما تناسوه وتمادوا فى الجور على حرية البلاد .

أما الزعيم الدينى الذى يتردد اسمه اليوم حول هذه الأزمة فقد سمع الناس باسمه قبل ثمانى سنوات على أثر حادث مشهور تدخل فيه سفير إيران بالقاهرة وقام لأجله باحتجاج شديد عند حكومة الحجاز . فقد حدث يومئذ أن حاجًا إيرانيًا غلبه جوفه عند الكعبة فظن الحجاج أنه « مشهدى » يتعمد تدنيس الحرم ، واعتذر الرجل بالمرض والإعياء وجهد السفر الطويل ، ثم

حوكم الرجل ، فحكم عليه بالقتل ، وغضب لمقتله الإمام المعروف آية الله الأصفهانى فتوجه إلى صاحب الجلالة الشاه يلتمس منه حماية رعاياه فى الحج إلى البيت الحرام ، وتلبية لهذا الرجاء صدر الأمر إلى السفير بالقاهرة للاتصال فى هذه المسألة بحكومة الحجاز ..

وآية الله وأتباعه قوة تلاقيها قوة مثلها من أنصار الإصلاح والتجديد ، وكلتاهما سند عظيم للحكومة الوطنية إذا اتفقتا فى طريق واحد ، ولكن الحيرة الحقة هى حيرة تلك الحكومة حين تفترقان وتتصارعان .

obeikandl.com

جمال الدين والقصة

على ذكر جمال الدين الأفغانى والأزمة الإيرانية وما كتبناه فى الأسبوع الماضى عن علاقته بتلك الأزمة ، تحضرنى الآن نصيحة من نصائحه تدل على نصيبه الموفور من القدرة على الإصلاح والخبرة بأبوابه وأسبابه ، لأنه فطن فى زمانه لفعل القصة الاجتماعية فى تنبيه الشعوب الغافلة ولم يكن شغله الشاغل بالإصلاح الدينى صارفًا له عن هذا الجانب الفنى الذى يجهله الكثيرون أو يتجاهلونه كلما انصرفوا بجملتهم إلى الدعوة الدينية .

تولى أعمال السفارة الإنجليزية بطهران - عند مفتتح القرن التاسع عشر - أديب مشهور ولد بمدينة أزمير وساح مع أبيه فى بلاد الشرق الأوسط حيث كان يعمل لحساب الشركة الكبرى المعروفة باسم شركة الهند الشرقية ، فدرس الحياة الشرقية دراسة وافية وأعانته نشأته بين الشرقيين على النفاذ إلى بواطن حياتهم الشخصية وحياتهم الاجتماعية ، ثم أعانته ملكة الفكاهة النادرة على تصوير هذه الحياة فى صور هزلية لا نظير لها فى الآداب الأوربية ، اللهم إلّا تلك الروايات التى ألفها وليام بكثال Pekthal واشتهرت إحداها المسماة بأنباء النيل بين قراء الإنجليزية من المصريين ، لأنها تتناول الحياة المصرية على الأسلوب الذى أجاده من قبله سفير الإنجليز بطهران ، حين كتب عن الحياة الإيرانية منذ مائة وخمسين سنة .

لم يجتمع الخبث والفطنة والفكاهة والأدب فى رجل سياسى كما اجتمعت فى جيمس موريير Morier مؤلف كتاب « حاجى بابا الأصفهانى » أو مغامرات حاجى بابا كما سماه عند ظهوره ، فمن صفحته الأولى إلى صفحته الأخيرة

لايفرغ القارئ من صورة إلا لينتقل إلى صورة ، ولا يطرح الكتاب من يده إلا على شوق إلى استئناف النظر فيه ، ويخيل إليك وأنت تقلب الصفحات واحدة بعد واحدة أن الكتاب سينفجر ضاحكًا فى الصفحة التالية أو التى بعدها ، ولكنك تتبعه فتراه مصرًّا على كتمان الضحك ، بل الابتسام ، كأنه أقسم على الجد والوقار قبل تناول القلم ، فلا عليه ضحكت أنت ملء شدقيك كلما نظرت إلى صورة من صور ذلك المتحف الحافل .. أما هو فلا سمح الله .. لا ضحك ولا ابتسام ، إلا الوقار كل الوقار ، والاحتشام جد الاحتشام !

وعلى الطريقة التى نؤثرها أحيانًا للدلالة بالمثل الواحد على الأمثلة المتعددة نكتفى هنا بخلاصة صورة من صور الكتاب الكثيرة ، وهى صورة طبيب البلاط وقد خاف على مكانته ومورد رزقه من منافسة الطبيب الأفرنكى الذى ساقه الشيطان إلى طهران .

فبعد عشرين صورة لهذا الطبيب الشاهانى فى أوضاع مختلفة ، يبدو لنا الرجل جالسًا فى مخدع أسراره ودسائسه ، وبين يديه مخلوق بائس طالب عمل طالما تردد عليه ثم قفل من عنده خائبًا على غير جدوى .. أما اليوم فالعمل حاضر والمكافأة موعودة والبشاشة والقبول بديل من التجهم والإعراض .

يقول الطبيب للرجل البائس طالب العمل : إن هذا المنحوس الأفرنكى سيقطع أرزاقنا ويسقط أقدارنا .. إنه شفى الصدر الأعظم بمعجزة خارقة فلا حديث للوزير الكبير ولا للشاهنشاه إلا بهذا الطبيب صانع المعجزات .. فما لم نعرف سر هذه الصناعة فلا عيش لى فى البلاد ولا عيش لك عندى ، وأمرى وأمرك إلى الله إن لم تبادرنى بعونك قبل الصباح .

ويعجب المخلوق البائس ما الذى فى وسعه أن يصنعه وكيف يحتاج الطبيب الشاهانى بجلالة قدره إلى عونه وإسعافه ، فيسأل فيجاب على الأثر : فى وسعك يا صاح أن تمرض كما مرض الصدر الأعظم وتقصد إلى الطبيب الأفرنكى ليشفيك كما شفاه ! ومتى حصل الدواء بين يديك واستدرجت صاحبنا إلى إفشاء سره فقد تم المقصود وعلينا بعد ذلك بقية التدبير .

ويعود المخلوق البائس سائلا : وكيف ينال هذا الشرف فيمرض كما يمرض الصدور العظام ؟

فيقول له الطبيب الشاهانى : إن الصدر الأعظم قد مرض على أثر أكلة فخمة أفرط فيها من الدسم والتوابل ، وكان الطبيب الأفرنكى حاضرًا فعرف داءه ووصف له دواءه ، وهذه الأكلة الممرضة ميسورة لك أضعافًا مضاعفة كما تقترح وحيث تريد ..

ويقول المخلوق البائس فى نفسه : إن أكلة كهذه تمرض الصدر الأعظم ولكنها تشفينى أنا وتقوينى وتعطينى من اللحم والشحم ما يسمننى ويغنينى ، ثم يظهر القبول لولى نعمته وينصرف إلى الطبيب الأفرنكى وفى صدره تدبير آخر ، فلا يأكل ولا يسرف فى تناول الدسم والتوابل ، بل يزعم للطبيب الأفرنكى أنه قادم من الحريم الشاهانى وأن السيدة التى أصيبت بالتخمة كما أصيب الصدر الأعظم لا تقدر على الخروج ولا يجيز لها العرف أن تعرض نفسها عليه ويصف له الطبيب طريقة العلاج وهو يبرأ من التبعة إن كان فى وصف الرجل للمرض خطأ أو تحريف ..

ولا تمضى هنيهة حتى يكون هذا المحتال عند طبيبه الشاهانى الدجال ، ويكلمه وهو يتلوى ، ويتلوى وهو يهم بأن يلفظ ما فى جوفه وليس فى جوفه كثير ولا قليل ! .. ولكنها الصنعة التى يستحق بها مضاعفة الثواب ووظيفة العمل التى تردد من أجلها على الأبواب .

هذه صورة واحدة مختصرة من مئات الصور فى الكتاب ، وكلها على هذا النسق من البساطة مع المبالغة الفكاهية ، وقلما عاش فى إيران نموذج من نماذج الحياة الإيرانية قبل جيلين أو ثلاثة أجيال إلا كانت ملامحه هناك على مثال كهذا المثال ، يعرض لك صورة الشاه والوزير والطبيب والعالم والفقيه ، كما يعرض لك صورة الجندى والحارس والتاجر والحلاق والحمال .

سمع جمال الدين بكتاب « حاجى بابا » هذا واطلع على بعض فصوله فلم يتأفف منه ولم ينظر إليه كما ينظر المصلح الجاد المتزمت إلى هزل الفن وألاعيبه المضحكة ، بل عرف قيمته فى دعوة الإصلاح وقال إن الإيرانيين ، والشرقيين

على التعميم ، ينتفعون بهذه المضحكات إذا نظروا إلى صورتهم فيها كما يراها الأوربيون ، ويتحدثون بها من وراء ظهورهم أو فيما ينشرونه من المصنفات بلغاتهم ، وأمر بعض مريديه أن يترجمه إلى الفارسية ليتخذه المطلعون عليه مرآة تعرض عليهم عيوبهم كما يراها الغرباء عنهم من قريب ، وتلك هى الفطنة التى تنم على بداهة المصلح الكبير ، لأن أثر الفن القصصى فى المجتمع لم يكن من المعلومات الشائعة بين المصلحين من أبناء عصر جمال الدين .

ومن الأمور التى يستغربها قراء العصر الحاضر أن هذا الكتاب مترجم إلى اللغة العربية منذ ستين سنة ، وأنه ظهر فى سنة ١٨٩١ بعد زيارة جمال الدين لمصر بسنوات ، ولا ندرى هل كانت ترجمته بإيعاز من المصلح الحكيم أو كانت محض مصادفة واتفاق ، إلا أنه لم يظهر بالأسلوب الذى يؤثر عن تلاميذ جمال الدين ، ولم يذكر مترجمه شيئا عن جمال الدين فى مقدمته ، فهو إذن أثر من الآثار الكثيرة التى أسفرت عنها نهضة الترجمة قبل جيلين ، ثم طواها الزمن لطول العهد وتغير الأساليب وغلبة الأسلوب الحديث على الأسلوب الذى استطاعه المترجمون فى ذلك الحين .

وقبل ختام هذا المقال الذى عرضنا فيه للقصة وآثارها الاجتماعية نجيب الأديب الإسكندرى الذى سألنا عن الفارق بين قصص الفن للفن وقصص الدعوة والإصلاح ، فنقول إن الفارق بينهما ظاهر واضح ولكنه غير حاسم ولا قاسم ، وقد قيل إن القصة تصوير اجتماعى أو تصوير نفسانى .. فلتكن صور الوجوه والأجسام إذن مثالاً للفارق بين التصوير المراد لذاته والتصوير المراد لفوائده ، فقد يرسم لك الفنان - إنسانًا عزيزًا لتحفظ تذكاره - عندك ولا تنتفع ببيعه أو بعرضه على غيرك ، فيقال إن الصورة من ثمرات « الفن للفن » بغير قصد إلى الفائدة والانتفاع ، ويصح بعد هذا أن يستعين بها الشرطة فى البحث عن صاحبها أو أن يبتاعها تاجر التحف إذا ارتفع شأن مصورها وتهافت عشاق الفن على طلب آثاره وأخباره ، فليس الفارق حاسمًا قاسمًا بين قصص الدعوة وقصص التصوير الفنية ، فرب قصة يكتبها الفنان ليرسم بها شخصية طاغية ولا يرمى إلى غاية رسمها ثم يكون لها أكبر النفع فى إثارة الأمم

على الطغاة ، ورب قصة يؤلفها صاحبها عامدًا لإثارة النفوس ولا تخلو من الجمال الذى يجعلها من طراز قصص الفن للفن فى إتقان الرسم وتجويد الأسلوب .

إنما يكون الفارق الأول فى نية المؤلف ثم فى عمله ، فإذا أراد إصلاحًا اجتماعيًا فعمله من أعمال الدعوة ، وإذا أراد تصويرًا فنيًا فعمله فن مقصود لذاته ، ولا يمتنع مع هذا الفارق أن تؤثر القصة الفنية فى المجتمع وأن تحسب القصة الإصلاحية آية من آيات الجمال ، إذا بلغت مبلغ الآيات الجميلة من صدق الأداء ولم تشوه رسومها بالتحريف المتعمد والاختلاف المكشوف .

obeikandl.com

كيف يفهمنا كتاب الغرب

أشرت فى المقالين السابقين إلى بعض الكتّاب الغربيين الذين عاشوا فى الشرق الأدنى والشرق الأوسط واختبروا حياتنا الشرقية فوصفوا نماذج الأشخاص عن معرفة ونفاذ إلى بواطن الأخلاق والنيات ، وذكرنا من هؤلاء الكتاب اثنين : أحدهما « جيمس موريير » صاحب كتاب « حاجى بابا » الذى وصف فيه إيران وبلاد الترك وطرفًا من مدن العراق وصفًا يفيض بالخبث والفطنة والفكاهة ، والآخر وليام مرمدوك بكتال صاحب كتاب سيد الصياد ، وكتاب أبناء النيل وقد وصف فيهما مصر والشام إبان الثورة العرابية على مثال جيمس موريير ، فبلغ كلاهما الغاية من الوصف الفكاهى فى هذا الباب .

لهذا نعود إلى الموضوع لاستيفاء الكلام عنه من ناحية الوهم الذى علق بالأذهان فخيل إلى الكثيرين منا أن الغربيين لا يفهموننا وأننا نحن لا نفهم الغربيين ، فالواقع أنهم يفهموننا وأننا نفهمهم، ولكنهم يخطئون كما نخطئ عامدين أو غير عامدين وكل فهم عرضة للخطأ إذا دخله الغرض أو خلطه صاحبه بالمبالغة والتزويق ، كما يفعل الكتاب الأوربيون حين يصفون الحياة الشرقية لأبناء وطنهم فيمعنون فى الإغراب والاستطراف لينقلوا إلى قرائهم صورة غير الصور التى ألفوها وسئموها ، وتطلعوا من فرط سآمتها إلى شىء مخالف لها يتخيلونه فى بلاد الأعاجيب والمفارقات .

أحسن بكتال وصف المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى فى بلادنا المصرية أثناء الثورة العرابية ، فعاش مع الفلاح فى حقله وسامره وعاش معه فى خصوماته وخرافاته ، وأدرك شعوره نحو حكامه من الترك والمصريين ، وشعوره

نحو الطارئين على بلاده من الشرقيين والغربيين ، وصاحبه فى القرية وفى البلدة وفى الحاضرة الصغيرة والعاصمة الكبيرة ، وعرفه حين يخشوشن وحين « يتمدن » ويتحذلق ، ورسم له صورة صادقة من وجهة نظر واحدة : وهى وجهة النظر الأوربية التى تتعمد الاتجاه إلى الجانب الغريب المخالف للمعهود .

وفى وسعك أن تقول إنه عرف زعماء الثورة العرابية ونظر إلى ماوراء ظواهرهم فأعطى كلا منهم قيمته فى معيار « الشخصية الإنسانية » ومعيار الوطنية المصرية ولا تنس أنه « إنجليزى » يكتب عن فترة من تاريخ مصر لها علاقة دقيقة بالسياسة الإنجليزية ، فإنه هو لم ينس ذلك على فرط اجتهاده فى إظهار « الحيدة » الفنية عند الكتابة على العظماء وعلى حركات الجماهير فى إبان الثورة .

ولا نجزم بأنه افترى متعمدًا على بعض الزعماء وقادة الجماهير ونخص منهم أولئك القادة الذين تهيأت شخصياتهم للظهور فى ذلك المعترك الشعبى المزدحم بالشخصيات المسرحية ، ومنها شخصية الشيخ عبد الله نديم على التخصيص ، فإن الكاتب يمثله لنا على سمت القداسة والخشوع ومن ورائه النار الملتهبة والسورة الجامحة ، بل من ورائه أحيانًا حض على الفتك والنقمة لا نعلم الآن علم اليقين مبلغه من الحقيقة . فقد وصلت محنة القتل السياسى فى ذلك العصر إلى رءوس أكبر من رأس عبد الله نديم ، وقد تعرض لها الزعماء العسكريون والزعماء الروحيون أو الفكريون ، وجاء فى تحقيقات الحكومة بعد هدوء الثورة ما يؤخذ منه شيوع الفتنة وتبادل النية على الفتك والغيلة ، ولكنها تحقيقات لم تسلم من شوائب الغرض فى جو يغشى عليه الضغط والإرهاب .

وليس من الحق على أية حال أن نقول بعد الفراغ من قراءة هذه الكتب وأمثالها إن الطبيعة الغربية قاصرة عن فهم الطبيعة الشرقية على الدوام وفى جميع المواقف والأطوار ..

كلا .. إنهم يفهموننا إذا أرادوا وإننا نفهمهم إذا أردنا ، ومن مطاوعة اللغط الشائع على الألسنة أن نردد مع المرددين أن الشرق شرق وأن الغرب غرب وقلما يلتقيان . فليس بين الإنسان والإنسان حجاب من حجب الفطرة إذا تهيأت

أسباب الفهم والشعور ولم نقحم عليها عقابيل الوهم السابق أو نوازع الغرض والهوى بغير دليل .

إن الذى قاله « كبلنج » عن الشرق والغرب لم يعجز عن قوله حوذى من عامة أهل القاهرة أو الإسكندرية الذين حملوا معهم طوائف السائحين والسائحات ساعات أو أكثر من ساعات ، فقد سمعنا منهم كما سمع غيرنا « أنهم يسحبون هؤلاء المغفلين إلى بحر النيل ويعودون بهم عطاشًا وهم لا يفقهون » .. وقد اعتقد الكثيرون منا ولا يزالون يعتقدون أن العلم شىء وأن الحذق والفهلوية و« الدردحة » شىء آخر لا يصحبه فى جميع الحالات ، وأن الغربيين إذا ميزتهم حضارة العصر بالعلوم والمخترعات فلا يزال الحذق والفهلوية والدردحة وقفًا علينا نحن الشرقيين دون سائر العالمين .

أليس كذلك ؟ بلى .. ولكنه كلام فارغ بغير حاجة إلى التمهيد والتطويل ، وحظه من الجهل كحظ الكلام الذى يذيعه الغربى عن الشرق وأهله مرضاة لغروره أو تسويغًا لمآربه وغاياته ، فهذا وذاك وهم كاذب وضلال عن الصواب لا أثر له غير تشويه الواقع وابتلاء الحس بما يشبه التخدير المعطل لكل إدراك صحيح .

نعم هناك حجاب عن المعرفة الصادقة بين الشرقيين والغربيين فى حالة واحدة : وهى حالة الموروثات التاريخية التى تتغلغل فى بواطن الضمير فلا تنكشف لصاحبها نفسه فى غير ساعات اليقظة والانتباه الشديد . فأنت إذا أدركت الأوربى بحسك وعقلك بقى فى طويته شىء وراء المحسوسات والمعقولات يرجع تأويله إلى تاريخ قديم يخفى عنك ميراثه فى النفس وإن علمت بوقائعه على التفصيل فإنك قادر على أن تعرف الوقائع ولكنك غير قادر على أن تنظر إلى مقرها فى الضمائر والطوايا ، وفرق بين التاريخ كما تغلغل حيًّا متحركًا تارة ظاهرًا وتارة مستسرًّا فى طبائع الناس مجتمعين ومتفرقين .

والأوربيون يجهلون هذا الجانب منا كما نجهل نحن هذا الجانب منهم ، فهو جانب من التاريخ المتجسد كالجسم الذى يبدو لك نصفه فى النور ونصفه فى الظلام ولا سبيل إلى رؤية الجسم كله بنظرة واحدة ، ولا استحالة مع ذلك فى

عرفان الحقائق المتوارية بعد انقشاع الظلام .

إذا قال القائل إن الشرق شرق وإن الغرب غرب على هذا المعنى فهو على حق فى حكمه على أوصاف الغربيين للشرقيين وأوصاف الشرقيين للغربيين . أما اللبس والاختلاط فيما عدا الجانب التاريخى فله أسبابه التى لا غرابة فيها ، وبعض هذه الأسباب مردود إلى القصور وبعضها مردود إلى تعمد الإغراب والاستطراف .

فإذا ندر بين كتّاب الأوربيين من أحسن وصف الحياة الشرقية فلا عجب فى هذا ولا داعى من أجله إلى الحكم بقيام الحجاب الحائل بين طبائع الشعوب ، فالكتّاب الصادقون فى الوصف والتصوير نادرون ، لأن العبقرية أو الهبة الفنية فى جميع الصناعات ومنها صناعة الأدب ، ولا غنى عن العبقرية أو الهبة الفنية لصدق الوصف والتصوير .

وإذا أخطأ العباقرة أحيانًا فلا عجب فى هذا أيضًا ولا أدعى من أجله إلى إقامة السدود بين طبائع الشعوب لأن المصور الصادق قد يتعمد النظر إلى الغرائب ويقصر عليها التفاته مطاوعة لسحر الجديد المستطرف ومجاراة لرغبته هو ورغبة قرائه المتطلعين منه إلى كل جديد طريف وبخاصة قراء الغرب من أبناء القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فقد رانت فيهما السآمة على خواطر القوم وعلقت أحلامهم بكل مختلف مخالف للمألوف ، وقل بين الناس فى جميع العصور من يغتفر للسائح أن يطوف بلاد العالم ليعود إليه فينبئه بشبيه ما يراه بعينيه فى عقر داره ، دون أن يتجشم مئونة الاطلاع والاستطلاع .

كلا . لا حجاب بين طبائع بنى آدم ، ولا يجوز أن يكون الغرض المشوه للحقائق حجة لمن يفرق بين الشعوب تفرقة الأبد بغير أمل فى ارتفاع هذه الفوارق ، إذ كان الغرض حائلا دون كل حقيقة وليست معرفة الناس للناس هى الحقيقة الوحيدة التى يحجبها الغرض عن الناظرين والباحثين .

المنطِق الوضعى

المنطق الوضعى مذهب من المذاهب الفلسفية الحديثة ، نشأ فى النمسا بعد الحرب العالمية الأولى ونقله أحد واضعيه « لدفيج ونجنستين » إلى إنجلترا عند انتقاله إليها وإقامته فيها ، وهذا الكتاب الذى بين أيدينا قد ألفه فى هذا المذهب الأستاذ الفاضل الدكتور زكى نجيب محمود ، مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول ، وهو أحد الشرقيين القلائل الذين درسوا مذهب المنطق الوضعى على أساتذته المتخصصين « فى جامعة لندن » وكتابه هذا باللغة العربية من الكتب الكثيرة التى وصلت إلينا منقولة إلى الإنجليزية .

خلاصة المذهب الوضعى الحديث فى بضعة سطور أن المعنى لا يكون إلا لأحد شيئين : واقعة محسوسة أو عبارة من قبيل تحصيل الحاصل كإعادة المعنى الواحد بعبارتين مختلفتين ، أو كقولنا إن ٥ × ٥ = ٢٥ فإن خمسة فى خمسة هى بعينها خمسة وعشرون مكررة بعبارة أخرى ، وما لم يكن المعنى واقعة محسوسة أو تحصيلاً للحاصل على هذا الأسلوب فهو « لا معنى » أو هو مقابل لعبارة الكلام الفارغ باللغة الإنجليزية .

هذا هو مذهب المنطق الوضعى فى بضعة سطور .

أما الرد عليه فى بضعة سطور أيضًا فنستعيره من الدكتور إريك جنجر الذى قال إن المنطق الوضعى بهذا المقياس نفسه كلام فارغ ، لأنه لا يقوم على واقعة محسوسة ولا على تحصيل حاصل ، وقول المنطقيين الوضعيين إن المعنى إمّا أن يكون واقعة أو عبارة مكررة هو حكم فكرى كسائر الأحكام الفكرية ، ومنها قولنا إن المعانى لا تنحصر فى الوقائع ولا فى الحاصل المعاد بعبارتين متساويتين .

ونحن نزيد على هذا أن الإنسان يستطيع أن يجزم بحقيقة لا صورة لها فى الخارج على الإطلاق ، لأنه يستطيع أن يقول « إن العدم مستحيل » ولا يمنعه من تقرير ذلك أن المحسوسات خلت من شىء يسمى العدم أو شىء يسمى المستحيل .

ومن كان لا يجزم بأن العدم مستحيل فعنده على الأقل أن العدم ممكن ، ويجب عليه حينئذٍ أن يفسر هذا الإمكان بالواقع المحسوس أو بتحصيل الحاصل من المعانى والكلمات .

بل يستطيع الإنسان أن يقول إن « العدم مستحيل » وأن ينتهى من هذه القضية إلى قضية أخرى وهى قوله : « إن الوجود أبدى لا أول له ولا آخر » وإن هناك موجودًا لم يكن معدومًا قط فى وقت من الأوقات ، ويتقرر له من هذا الطريق شىء يسمى « الأبد » لا تقع عليه العين ولا يذهب الفكر إلى إدراك أوله أو آخره ، لأن أوله لم يكن وآخره لن يكون !!

على أننا ندع الأبد الذى لا أول له ولا آخر ونكتفى بما هو نقيضه من بعض الوجوه وهو النقطة الهندسية . فما هى النقطة الهندسية ؟ هى شىء لا طول له ولا عرض ولا عمق ولا ارتفاع ، وهى على هذا شىء ليس له وجود .. وهى بعد هذا وذاك شىء لو أبطلنا القول به لبطل القول بجميع الرياضيات التى تقوم على تسليم ذاك التعريف ! فهل فى وسع أحد أن يصف الرياضيات بالكلام الفارغ ؟ وإذا جاز الاستناد إلى أمثال هذه التعريفات فى الرياضة فلماذا يمتنع فى غيرها من التحقيقات ؟

لا بل ندع الأبد والنقطة الهندسية ونسأل مع الباحث المفكر « أرنولدلن » صاحب كتاب الثورة على العقل : ما هو الدليل عند المنطقيين الوضعيين على أن الحوت منحدر من الفقاريات الأرضية ؟ فما من أحد عثر بين المتحجرات على حلقات متوسطة بين تلك الفقاريات وبين الحوت ، وما من أحد جاء بنظرية تربط هذه الحلقات بفروض معقولة ، فإذا كان قول النشوئيين هنا علمًا صالحًا للإثبات فما هى وسيلة الإثبات على مذهب المنطقيين الوضعيين ؟

يقول الدكتور زكى نجيب : « إن العبارة التى لا ترسم لنا صورة نستعين بها

فى المطابقة بين ما تزعمه وبين ما هو فى الطبيعة لا يكون لها معنى على الإطلاق ؛ هى جلبة أصوات كالتى يحدثها سير العجلات فى الطريق ، لأن معنى الكلام هو طريقة تحقيقه .. وأن معنى القضية وكيفية إثبات صدقها شىء واحد .. » .

وكلام الدكتور زكى نجيب حسن من وجهة النظر المنطقية الوضعية ، ولكن كيف يثبت فى وجهة النظر هذه أن الحوت قد انحدر فعلاً من الحيوانات الفقارية على الأرض اليابسة ؟ وهل عند المنطقيين الوضعيين إشارة المرور التى تقف تلك العجلات وهى تثير ضجتها فى عرض الطريق ؟ ..

ليس الحس هو المعنى ، فقد يكون المعنى شيئًا مستمدًّا من الحس أو مفسرًا لعوارضه وأجزائه ، أما أن يقال الحس والمعنى شىء واحد فالواقع لا يثبته إن لم نقل إنه ينقضه وينفيه .

لقد وجد الحس كثيرًا ولم يوجد معه معنى كما هو حال الحس فى الحيوانات السفلى ، وقد وجد الحس فى الإنسان ولم يوجد المعنى على حسبه وبقدره ، فليس الإنسان صاحب الحواس النافذة أقدر الناس على استخراج المعانى وتأليف الصور الذهنية ، وليس تعريف المحسوسات باللفظ المفهوم أسهل من تعريف القيم الأخلاقية أو القيم الفنية التى تنطوى فى كلمات كالوسامة والجمال والصباحة وما إليها .

يقول الدكتور صاحب الكتاب إن « العبارات الأخلاقية بهذا المعنى لا تصلح أن تكون قضايا لأنها لا تصلح أن توصف بالصدق أو بالكذب إذ هى لا تصور شيئًا واقعًا حتى نتمكن من المطابقة بين التصوير والواقع المصور » .

وقد سبق الدكتور هذا الكلام بقوله إننا إذا أردنا من علم الأخلاق أن يبحث فيما يجب أن يكون « فما يجب أن يكون ليس كائنًا » .

نقول : نعم وكذلك الدائرة كما يجب أن تكون غير كائنة فى مناظر الطبيعة ، فهل نحذف قياسها لأجل هذا من حساب العلوم ؟

لسنا نرى فى الواقع فرقًا بين حقيقة تقول إن العدل جميل وإن الحبر أسود ، فإذا سألتنى : ما هو الجمال ؟ سألتك : ما هو السواد فى وصف المداد ؟ هل هو لون ؟ هل هو ضد اللون ؟ هل هو نقيض البياض ؟ هل نفهم من مناقضته

للبياض أن السواد حاصل بذاته بمجرد زوال البياض ؟ وإذا اتفقنا على تعريف معنى الأسود فقال لنا قائل : إن المداد قد يكون أحمر أو أزرق أو على لون غير هذين اللونين ، ألا نرجع إلى تقييد كلمة المداد فنقول : بعض المداد بهذا اللون ولا نطلق لونه على جميع أنواع المداد ؟ وإذا جاءنا أحد فقال لنا إنكم لم تصنعوا شيئًا بوصفكم المداد هكذا لأنكم لم تميزوه من بين مئات الأشياء الزرقاء ، ألا يكون هذا الاعتراض كاعتراض القائل إن العدل ليس بالجميل عند جميع الناس ، وإن وصف الجمال غير متفق عليه بين جميع المتكلمين ؟

فالفرق عظيم جدًّا بين صعوبة تعريف المعنى وبين انعدام المعنى على الإطلاق ، وقد يكون حصر العناصر الأخلاقية أصعب من حصر العناصر اللونية أو الحجمية أو ماشابهها من العناصر الحسية ، ولكن الكلام عنها لا يصبح بناءً على هذا كلامًا غير صالح للتصديق والتكذيب ، أو كلامًا فارغًا بالمعنى الذى يقصده المنطقيون الوضعيون .

ولنرجع إلى أقرب المحسوسات من طب الأجسام فنسأل دعاة المنطق الوضعى : ماذا نفهم من قول الطبيب الجسدى إذا قال لنا عن دواء من الأدوية إنه شافٍ لبعض الأمراض ؟ أفى قوله هذا معنى يخالف معنى الطبيب الأخلاقى حين يقول إن العدل دواء شاف لداء الفوضى والظلم فى المجتمعات ؟ .

من الذى رأى فعل كل قطرة من كل خلية جسدية فثبت له أن الشفاء قد حصل من تأثيرها ؟ فلماذا يكفينا أن ننظر إلى النتيجة لنصدق الطبيب ؟ ولماذا لا نكلفه أن يرينا فعل كل قطرة فى كل خلية ثم لا نكتفى من الطبيب الأخلاقى بقوله إن العدل شفاء من داء الظلم والفوضى ؟

لا اختلاف فى جوهر المعنى بين قضية حسية وقضية أخلاقية ، وكل ما هنالك من خلاف هو أن عناصر الإثبات فى إحدى القضايا أكثر أو أخفى من عناصره فى قضية أخرى ، وهكذا قد تختلف القضيتان القائمتان على الوقائع المحسوسة ، لأن عناصر الإثبات فى ادعائنا أن نجوم المجرة على بعد ملايين السنين الضوئية ليست فى سهولة العناصر التى تثبت لنا أن البعد بين هذه الحجرة وتلك ثلاثة أمتار .

وبعد : أفليس من الوقائع المحسوسة أن أرسطو وأفلاطون وديكارت وكانت ، وجدوا فى العالم وبحثوا فى شئون يخرجها المنطقيون الوضعيون من نطاق البحوث المعقولة ؟ فهل يكفى فى الحكم على هذه الوقائع المحسوسة أن نقول إنها كلام فارغ بهذه السهولة ؟ وهل نستدل على طبيعة التفكير منطقيًا ووضعيًا بأدلة أوقع من ذلك الواقع وأحسن من ذلك المحسوس ؟ هل يفكر الناس منذ الأزل على غير الطريقة الوضعية ثم يقال إن ذلك التفكير لن يصلح للاستدلال ولن يستحق وصفًا غير وصف الكلام الفارغ كما يقال ؟

أحسب أن الدكتور زكى نجيب سيبادرنى قائلًا : إن الناس ضلوا كثيرًا فيما مضى فليرجعوا عن هذا الضلال كما رجعوا عن غيره من ضروب الضلال ، فإذا خطر له أن يقول ما سبق إلينا أنه قائله فلا ينس أن الحس والواقع مصدر ذلك الضلالة ، وأن علوم العقل المجردة كالهندسة وما إليها سلمت من الآفات الحسية الواقعية التى يفتتن بها الوضعيون .

وقديمًا ، قبل ثمانية عشر قرنًا ، كان هناك وضعيون واقعيون يقولون بلسان سكتس امبريكاس : « يدعى بعضهم أنه نهار فنقول لهم افرضوا .. ثم نعرض دعواهم على الواقع ونرى أن الواقع الموجود يؤيدها فنقرر أن ما ادعى صحيح » .

أيذهب الدكتور زكى نجيب إلى أبعد من هذا فى المنطقية الوضعية ؟ كلا على التحقيق قبل أن نسأله وقبل أن نحتكم إلى المنطق الوضعى فى إثبات جوابه ، ولكننا نذكر الدكتور ما ليس فى تذكره صعوبة عليه . ونؤكد له أن الحقائق التى كشفها سكتس امبريكاس ذرة من هباء إلى جانب الحقائق التى قررها أرسطو وأفلاطون وسقراط ، وكلهم زائغ فى عرف المناطقة الحسيين ! .

على أننى قبل أن أختم المقال أغبط « المنطقية الوضعية » على جهود المؤلف الغيور عليها ، وأحسب أنه لو ثبت مذهب بحسن العرض والاستدلال لثبت بهذا الكتاب مذهب المنطقيين الوضعيين .

قاسِم أمين الفنّان

قاسم أمين من رجالنا القلائل الذين تعرفهم حق معرفتهم فتسأل : ماذا يكون هذا الرجل لو لم يكن من رجال القضاء والقانون ؟ .

والمقاييس التى يقاس بها الرجال الممتازون كثيرة لا تحصى ، لأنها تتعدد كما تتعدد جوانب العظمة والنبوغ فى هؤلاء الرجال ، ولكن سؤالك عن رجل منهم : ماذا يكون لو لم يكن كما عرفناه – هو ولا ريب واحد من تلك المقاييس الكثيرة ، لأن الرجل الذى لا يخطر لك أنه يصلح لشىء غير وظيفته التى تولاها هو إنسان محدود خلو من تعدد الجوانب وسعة الأفق والاستعداد لأكثر من عمل فى الحياة ، وعلى نقيضه كل رجل يوحى إليك أن تسأل كيف يكون لو لم ينصرف إلى عمله الذى اشتهر به ، فإنه يوحى إليك بذلك لأنك قد شعرت بجوانبه المتعددة وعرفت له ملكات لا تنحصر فى وظيفة واحدة .

وهكذا يسأل عن قاسم أمين من عرفوه بالمعاشرة أو عرفوه بالقراءة : ماذا يكون لو لم يكن قاضيًا من كبار القضاة ؟

وأحسب أن الجانب القريب إلى هذا السؤال أنه مطبوع على الفن الجميل ، فلو لم يكن قاضيًا ممتازًا لكان نابغة معدودًا من نوابغ الفنون فى هذه البلاد .

نعرف الفنان المطبوع من يقظة شعوره ودقة ملاحظته وغلبة العاطفة عليه .

ونعرفه من شغفه بالفن الجميل ونظرته العالية إلى أثره فى تهذيب النفوس وترقية الأمم .

ونعرفه من ميله الفطرى إلى تجسيم المعانى وإبرازها فى الصور المحسوسة والنماذج التى تصاغ كالتماثيل .

ونعرفه من عنايته بالصور والأشكال فى تجاربه ومشاهداته كأنما يجتمع من أوصافه متحف عامر بتلك الصور والأشكال .

وقد كانت كل خصلة من هذه الخصال معروفة مألوفة فيما كتب قاسم من المذكرات والتعليقات ، كما كانت معروفة مألوفة فى كتابيه تحرير المرأة وامرأة الجديدة ، وكلاهما عامر بلمسات الريشة الوصافة ، مع أنهما من كتب البحث والبرهان .

كان يكتب لنفسه فى مذكراته « من أعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الذوق السليم » وكان يعرف الذوق السليم فيقول إنه هو هذا الإحساس الفطرى الذى ينمو ويتهذب بالتربية . هو الشعاع اللطيف الذى يهدى صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ويجتنب ما لا يناسبه » .

وكان الشعور المشبوب عنده هو لباب الحياة ، فلا شىء عنده « يشبه العشق فى عنفوان نشأته . إذا هجم هذا المستبد القاهر ارتعدت له الفرائض وحصر اللسان واختبل العقل وخلا الطريق أمامه فوصل إلى القلب بوثبة واحدة أو بوثبات متعددة ، ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملأه برمته فلا يقبل منافسًا أو منازعًا أو شريكًا أو ضيفًا بجانبه .. فإذا تمكن من النفس على هذه الحال وقبض على زمامها رضيت بعجزها وشكرته على أسرها واغتبطت برقها ووجدت فى اتصالها بنفس أخرى قوة وفرحًا وسعادة لم تر مثلها » .

ويكتب فى مذكراته عن العشق غير ذلك أن العاشق يشعر « بلذة ساحرة إذا كان محبوبًا ، وإذا كان غير محبوب وجد فى ألمه لذة أخرى مشابهة للسكر من تنبه فى الأعصاب وسرعة فى دورة الدم وانفعالات شديدة فى النفس .. زيادة محسوسة فى مبلغ الحياة كلاعب القمار يتمتع بإرضاء شهوته فى الربح وفى الخسارة » .

أما شغفه بالفن الجميل فحسبك من كتاباته الكثيرة التى تنم عليه أو تشير إليه قوله إن « أكبر الأسباب فى انحطاط الأمة المصرية تأخرها فى الفنون الجميلة : التمثيل والتصوير والموسيقى .. هذه الفنون ترمى جميعًا على اختلاف موضوعها إلى غاية واحدة هى تربية النفس على حب الجمال والكمال ، فإهمالها

هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور » ..

وأدل من هذا على ملكته الفنية المطبوعة أنه كان مولعًا بتمثيل المعانى والخوارج فى الصور المجسمة كما يقول عن السعادة : « كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى فى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل » .

وشبيه هذا أنه يتصور الناس كأنه ينظر إليهم فى مصنع الخلق والتكوين ، فيقول عن بعضهم إنك « متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص فى خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الإتقان المعهود » .

ولم يكن قاسم من أصحاب المطولات فى الكتابة ، ولكنك إذا تصفحت الرسائل المعدودة التى تركها وجدتها حافلة بالنماذج والصور والمناظر على اختلاف الألوان .

هنا الموظف فلان بك الذى يرشح نفسه كل يوم ثلاث مرات عند الخديوى وعند المعتمد البريطانى وعند أحد النظار أى الوزراء .

« .. إذا كان فى مجلس وتحقق أنه يكره الإنكليز كان أول من يذمهم ، وإذا وجد نفسه فى جمعية إنكليزية كان أول من يذم أبناء جنسه » .. صادفته مرة بين قوم من الفرنساويين يقول لهم : آه لو كان الفرنساويون هم الذين دخلوا بلادنا لكنا أسعد الناس ، فإن المصرى ميال بطبعه إلى الفرنساوى ونحن نعتبر أن كل تمدننا هو عمل الأمة الفرنساوية .. يقول للسورى إنه لا يفهم معنى كراهية المصريين لهم وإنه لا يحب التمييز مطلقًا بين أفراد أمتين تجمعهما جامعة واحدة ، ويقول للقبطى إنه ممن يبغض السوريين ويعلم سر كراهة المصريين لهم . ولكن الأقباط والمسلمين أمة واحدة فيلزم أن يتحد الفريقان .. وهذا الشخص يظن أن علم السياسة العملية هو غش الناس بكل وسيلة ، ومن الغريب أنه يحفظ لنفسه مكانة بهذه الطريقة ولا يكشف حقيقة أمره إلا نفر قليل ، إذا تكلموا ضاع صوتهم الضعيف » .

ويلتفت من صورة السياسى الوصولى إلى صورة الوجيه الوصولى الذى يرشح نفسه للمكانة الملحوظة فى المجتمع ، فهو « إذا أراد أن يفعل الخير انتهز الوقت المناسب لإعلانه ، فإذا رأى شهودًا وضع يده فى جيبه وأخرج كيسه وعد

النقود ووضعها ببطء فى يد صاحبه بعد أن يراها الحاضرون ، ولكيلا يبقى عندهم شك فى مقدارها يقول لمن تفضل بمساعدته : خذ هذه الجنيهات العشرة .. فإذا خرج هذا المسكين التفت إلى من حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتياده عمل البر .. وكلما اجتمع فى نهاره بواحد من معارفه أوجد مناسبة ليقص عليه خبر هذا الحادث العظيم » .

وعلى هذا النحو صورة الشيخ الفضولى فى الوليمة : « إذ دخل علينا زئر من المشايخ فاضطر صاحب المنزل إلى أن يدعوه إلى الأكل معنا فدخل أمامنا واختار لنفسه أحسن مكان وكان أول الجالسين .. جلس على الكرسى القرفصاء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله ، ثم برم كم القفطان والقميص الذى تحته برمًا شديدًا فانكشف الساعد والمرفق فتمثل لى جالسًا فى مكان من الميضاء يستعد للوضوء .. اشتغل بالأكل ولم ينطق بكلمة أو يصغ لحديث ، ولما كان بعيدًا عن المائدة كان كلما تناول شيئًا من الطعام سقط بعضه على ملابسه ، وكان يلقى العظام على مفرش المائدة فلما امتلأ بطنه أخذ ينكش أسنانه ويخرج منها فضلات الأكل فيقذفها من فيه بقوة يمينًا وشمالاً ، وبينما نحن شاخصون إلى حركات هذا الشيخ صاح أحدنا : آه يا عينى ! . وقام واضعًا يده على عينه .. فالتففنا حوله وسألناه الخبر فأخبرنا بأن قطعة من العظم دخلت فى عينه .. فتأملنا فلم نجد فيها أثرًا .. فضحك وقال : إنها نفذت فيها وخرجت من الجانب الآخر » .

وعلى هذا النحو صور شتى من قبيل صورة الموظف فى الديوان ، أو السيدة فى الطرق ، أو أرباب المعاشات ، أو ليلة الزفاف ، أو العاصمة يوم تنفيذ الحكم فى قضية دنشواى ، أو العاصمة يوم تشييع مصطفى كامل ، أو مجامع باريس فى الأندية والمحافل ، أو ما شابه هذه الصور الفردية والاجتماعية حيثما وقع عليها بصره الحصيف ونفذت إليها قريحته الثاقبة ، فلا تعبرها واحدة بعد أخرى إلا تخيلت « الفنان » وقد تنقل فى جولاته واحتقب دفتره وأعد ريشته ليبادر المناظر حيث تلتقطها عيناه ، فيثبتها فى صفحة بعد صفحة قبل أن يمحوها النسيان .

لا أزال أذكر الساعة التى سمعنا فيها نعى قاسم بعد سهرته فى نادى المدارس العليا الذى كان يتعهده ويشرف عليه .

كان ذلك فى مثل هذا اليوم فى مثل هذا الشهر قبل ثلاث وأربعين سنة ، وكان عمره ثلاثًا وأربعين سنة يوم فارق الحياة .

وتجدد الحديث عنه اليوم لذكر وفاته ولكثرة المتحدثين فى هذه الأيام عن حركات النساء المطالبات بحقوق الانتخاب .

قال لى قائل : ألا تكتب عن قاسم أمين وقد كتبت عن صديقه سعد زغلول ؟

قلت بلى ! ومن تمام التقدير للرجل ألا أكتب عنه من هذه الناحية التى ظن بعضهم أنه لا ناحية له غيرها .

من تمام التقدير لقاسم أمين أن نذكره مرة أو مرات لغير تلك المناسبة التى تقترن باسمه على الدوام وهى مناسبة تحرير المرأة .. فهو أكثر من مصلح وأكثر من قاض : هو مصلح وقاض وفنان .

لا جديد تحت الشمس .. ولا تحت الأرض ..!

نعم لا جديد تحت الشمس ولا تحت الأرض ولا ما بينهما ، وآية ذلك قصة البترول أو قصته فى إيران بنفسها ، فهى صاحبة أقدم قصة من قصص البترول ، وهى كذلك صاحبة أحدث قصة من قصصه فى الشهرين الآخيرين ، وقد كتب عنه هيرودوت أبو التاريخ قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون ، ويكتب عنه اليوم صحفيون محدثون ينتسبون إلى التاريخ ولو فى غير حلال ، وقد يبرأ منهم كل آباء التاريخ وأمهاته ، إن كانت له أمهات .

ويقال اليوم إن المال عصب الحرب وإن البترول دم الحرب الدافق فى عروقها ، وهكذا قيل عن تاريخ الإسكندر الكبير ، والعهدة على رواية « الشاهنامة » أو على عهدة ناظمها الفردوسى أبى القاسم ، وهو حجة ولا ريب فى الخيال ، وإن لم يكن حجة فى تدبير حيل القتال .

روى أبو القاسم فى ملحمته الكبرى أن أصحاب الإسكندر فى غزوته للهند قالوا له : « إن مع فور – ملك الهند – فيلا عظاما لا تستطيع خيلنا بين يديها ثباتًا ومقامًا ، فاجتمع أصحاب الرأى وتفكروا فى الاحتيال لدفع معرة تلك الفيلة . فعملوا صورًا من الحديد مجوفة على أشكال الخيل ، وعليها ركابها بصفتها وكيفيتها لكى يحشوها نفطًا ويطرحوا فيها النار عند الملاقاة . حتى إذا صدمتها الفيلة احترقت خراطيمها وولت ، فارتضى الإسكندر ذلك واستحسن ما عملوا ..

ثم قال صاحب الشاهنامة : إنه « لما كان يوم القتال صف منها الإسكندر صفوفًا مرصوصة فأقبل فى جموعه وفيوله وشياطين رجاله وخيوله ، فأمر

الإسكندر بإلقاء النار فى أجواف الصور فاضطرمت ، فتقدمت الفيلة فأشرعت خراطيمها نحوها لتختطفها ، فلما وجدت مس النار نكصت على أعقابها ، وقلبت ظهر المجن على أصحابها ، وأنحت عليهم بخراطيمها وأنيابها ، فانهزموا وركب الإسكندر بأصحابه أكتافهم ، وأتبعهم إلى أن غربت الشمس فنزل بين جبلين » .

إلى آخر ما جاء فى وصف المعركة التى حصلت فعلاً ولكن على غير هذا المثال ، وإنما وصف الشاعر قتالاً فى الخيال ، وصال وجال حيث اتسع له المجال ، وما اتسع له قط فى ميادين الخيل والرجال .

نعم تلك هى قصة الشاعر التى لم تحصل ، وكل ما حصل فى المعركة أن الفيلة قد انهزمت لأن الفياليين قتلوا على متونها ، وفوجئ جيش الهند بعد ليلة مظلمة وبعد ظلام من الخيانة أوقع بين أمرائها ، فانتصر الإسكندر مجهدًا وانقلب يائسًا ، وكان أشبه انتصار فى غزواته بالهزيمة والانكسار .

أما قصة البترول - أو النفط - فى تلك الغزوة ، فغاية ما فيها أنها كانت كألعاب السواريخ ، وأن أبناء البلاد أحبوا أن يروعوه بأسرارها فاتخذوا من طرقات همدان ملعبًا للنيران ، ورشوا طريقها الأكبر بالنفط على مراحل يتصل بعضها ببعض ، فلما اشتعلت أولاها سرت النار فى لمحات معدودات إلى آخرها ، وبلغ من جهل الإسكندر بأسرار هذا الزيت العجيب أنه طلى غلامًا من غلمانه ببعض دهانه ، فأوشك أن يموت فى مكانه ، ولولا قدر من الأقدار لما نجا الإسكندر نفسه من لعب النار .

على أن تاريخ النفط فى الحروب القديمة لم يكن كله ضربًا من الخيال ، ولم يكن فى جملته لعبة من ألاعيب السواريخ ، بل كانوا يعرفونه أحيانًا باسم النار الإغريقية ويعرفونه أحيانًا باسم الحمر والقار والقير ، ويعالجون به صناعات الحرب كما يعالجون به صناعة السلام ، وقد تمت حيلة الإسكندر على يد فاتح آخر فى البلاد الفارسية ، فأشعله نادر شاه فى جمال حية ولم يشعله فى خيل من حديد ، وزعموا أنه هزم الفيلة بأخواتها من تلك الجمال .

أما تاريخ النفط الأكبر قديمًا فهو تاريخه المتصل بتواريخ الأديان وتواريخ

المعجزات ، فقد كانت له قصة فى مولد موسى عليه السلام ، وكانت له قصة فى مولد محمد صلوات الله عليه ، وإذا صدق الظن فقد كانت له قصة كذلك فى مولد السيد المسيح ، هى القصة التى رويت عن حكماء المجوس .

ففى سفر الخروج وصف لولادة موسى الكليم جاء فيه أن أمه خبأته ثلاثة أشهر « ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أخذت له سفطًا من البردى وطلته بالحمر والقار ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به » .

والحمر والقار من خامات النفط التى كانوا يستخدمونها فى طلاء السفن وتحنيط المومياوات ، ولم يكن مجهولا بخصائصه هذه عند قدماء المصريين .

وجاء فى أخبار الحوادث التى اقترنت بمولد محمد صلوات الله عليه أن نار المجوس انطفأت ، وأن الأرض فى مدائن كسرى زلزلت ، وأن إيوان كسرى هوت منه شرفات ، واقترنت بهوية علامات خفيت على عباد النار فى تلك الديار .

والمؤرخون الذين يفسرون هذه الأنباء يعلمون أن نار النفط كانت تطفو على سطح الأرض فى معابد المجوس ، وأنهم كانوا يحسبونها من أسرار أربابهم ومن آيات كتابهم ، فلما زلزلت الأرض انخسفت بالنار التى عليها فانطفأت ، وارتج الإيوان من هذه الزلزال فتساقطت شرفاته ، فارتاع عبّاد النار وخامرهم الشك فى هذه الآلهة التى تخمد أمام أعينهم فى لمحة عين .

وقد اجتهد أناس فى تفسير العمود المضىء الذى اتبعه المجوس من المشرق إلى فلسطين عند مولد السيد المسيح ، فرجموا بالظن فى تفسيرهم وحسبوه دليلًا على باطن الأرض ، تتمثل فيه علامة من علامات السماء .

والذى لا شك فيه أن تاريخ النفط مع الأنبياء والمرسلين أقدم من ميلاد موسى وعيس ومحمد عليهم السلام ، فقد كان له شأن مع نوح صلوات الله عليه فى سفينته ، وجاء فى سفر التكوين من العهد القديم أن الله سبحانه وتعالى قال له : « إن الأرض امتلأت ظلمًا فها أنا مهلكهم مع الأرض » وأمره أن « يصنع لنفسه فلكًا من خشب وأن يطليه من داخل ومن خارج بالقار » .

وقد كان القار الذى تطلى به السفن من خامات النفط كما تقدم ، وكان منه ما يستخدم للبناء ، وبرج بابل من العمائر التى دخل فيها نفط إيران والعراق !

هل يعيد التاريخ نفسه كما يقول المؤرخون ؟ وهل يعود طوفان نوح إلى الأرض التى ملأناها ظلمًا كما ملأها أجدادنا فى عهد الطوفان القديم ؟ وهل يكون النفط اليوم عدة النجاة أو عدة الغرق فى الطوفان الجديد ؟ سيكون طوفان لا ريب فيه ، وسيكون للنفط فيه شأن كبير ، وسيكون للمشرق دوره ، ويكون لجبال الروس دورها كما كان لها دورها عند جبال أرارات ، وقد تقلع سفينة الطوفان من هناك ولا يكون مرساها هناك كما رست من قبل على الجودى الأمين .

إن الغراب يطير اليوم ولا يعود ، وإن الحمامة تطير حيث يطير غراب البين ولا تعود ، وفى المشرق آبار من النار ، إما أن يسطع منها الضياء وإما أن تعصف بالديار فلا يبقى فيها من ديار ولا نافخ فى نار ، وانتظروا الغراب الطائر والحمامة الطائرة ، فقد فار التنور ، وويل للناس من التنور إذا فار .. !

خِدمة اللغة العربية

لغتنا العربية لغة مخدومة توفر أبناؤها على العناية بها منذ عصر الجاهلية ، وتجددت هذه العناية بعد ظهور الإسلام حين أصبح العلم باللغة علمًا بالدين مضافًا إلى العلم بالأدب والمعارف اللسانية على تنوعها ، ولعلنا لو وقفنا عند القرن السابع عشر للميلاد لم نجد لغة واحدة تضارع لغة العرب فى استيفاء بحثها والإحاطة بمادتها وإحصاء مواردها ومصادرها ، فقد تركها الأولون عند مفتتح عصر الحضارة الأوربية الحديثة لغة موفورة المراجع سواء منها ما يرجع إلى إحصاء المفردات أو ضبط النطق أو ترتيب القواعد أو استقصاء الأصول والشواهد ، فلم يترك الأولون فى قوم من الأقوام لغة مخدومة على هذا النحو عند مفتتح العصر الحديث.

ويبدو لنا أن نصيبها من الخدمة فى هذا العصر لن يقل عن نصيبها من خدمة الأوائل ، لأننا لم نكد نتلقى المدد الأول من شبان العلماء الذين درسوا اللغة على الأصول العصرية حتى تلقينا معهم جملة صالحة من البحوث الموضوعة أو المترجمة التى يعالجون بها مسائل اللغة العربية ويتوخون فيها أن يفيدوا لغتهم من قواعد الدرس اللغوى كما عرفوها فى المعاهد الأوربية ، وهى القواعد التى يقوم عليها كل بحث صحيح فى هذا الباب ، سواء اتفقت الآراء فيه أو تشعبت بها الطرق على حسب المنازع والأفكار .

هذه القواعد الحديثة هى التى قررها الباحثون فى اللغات من طريق المقابلة بين أصولها وأطوارها والنظر فى المتشابه والمتناقض من قواعدها وأساليبها ، والاستعانة بعلم وظائف الأعضاء فى تعليل المخارج الصوتية وربط العلاقات بين

أجهزة الحلق واللسان وبين مراكز النطق فى الدماغ للموازنة بين النطق اليسير والنطق العسير وما عسى أن يكون سابقًا أو يكون لاحقًا من الكلمات والأصوات والحركات على هذا الاعتبار ، ولم يزل تطبيق هذه القواعد على جميع اللغات ومنها اللغة العربية عملاً مقتحمًا يغلب عليه الاجتهاد وقد يتعرض لكثير من الاعتساف الذى ينساق إليه الباحثون فى لغتنا كما ينساق إليه الباحثون فى شتى اللغات .

على أننا نرجو أن تكون خدمة الأولين للغة العربية نافعة لنا فى خدمتها على القواعد الحديثة ، ونرحب بالخطوات المتوالية التى يخطوها شبان العلماء منا فى هذه الوجهة ، وهى مبشرة فيما تلقيناه منها حتى الساعة بخير عاجل وغرس مرجو الثمرات .

أمامى الآن ثلاثة كتب فى البحوث اللغوية لمؤلف واحد هو الباحث الفاضل الدكتور إبراهيم أنيس الأستاذ بكلية دار العلوم ، وهذه الكتب الثلاثة هى « موسيقى الشعر » و « الأصوات اللغوية » و « من أسرار اللغة » وفيها من المسائل المختلفة التى يجمعها عنوان اللغة ما يتفاوت كتفاوت الكلام فى الصوت اللغوى والصوت الموسيقى والصوت الذى يتميز بحركات الإعراب .

وليس من اليسير أن نتابع التعقيب على هذه المسائل جميعًا فى مقال واحد ، ولكن المقال الواحد قد يكفى لبيان القاعدة وبيان الاختلاف فى تطبيقها ، وقد يغنى بعض الغنى فى الإشارة إلى ما عداه وجرى مجراه .

وسنكتفى فى هذا المقال بتعليل ظاهرة الإعراب فى اللغة العربية ، وهو التعليل الذى يرى المؤلف الفاضل أن يستخرج سره من عادات الوقف والوصل بين الكلمات شعرًا ونثرًا ويقول : « إن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل فى الكلام شعرًا ونثرًا . فإذا وقف المتكلم أواختتم جملته لم يحتج إلى تلك الحركات ، بل يقف على آخر كلمة من قوله بما يسمى السكون ، كما يظهر أن الأصل فى كل الكلمات أن تنتهى بهذا السكون ، وأن المتكلم لا يلجأ الى تحريك الكلمات إلا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل » .

نقول إن التعليل على هذا النحو نمط من التطبيق تجيزه طريقة البحث

الحديثة ، ولكنها لا تنزله منزلة الوجوب واللزوم ، لأن الآراء قد تختلف هنا على حسب الاختلاف فى تقدير أهمية الحركة وتقدير أهمية الحرف ، فمن رأى أن الحركة مهمة ثبت فى اعتقاده أن الإعراب مسألة جوهرية وليس بالمسألة العرضية ، ومن رأى أن الحرف هو المهم دون الحركة سهل عنده أن ينظر إلى الإعراب كأنه زيادة طارئة يأتى بها الوصل أو الفصل بين الكلمات .

أما نحن فنعتقد أن الحركة فى اللغة مهمة كالحرف أو تزيد عليه فى الأهمية أحيانًا ولا سيما فى اللغة العربية ، لأن الكلام المنطوق سابق للكلام المكتوب ، ولأن الحركات هى وسيلة التوكيد والتنبيه بخلاف الحروف ، فإننا لا نستطيع أن نؤكد الباء أو الفاء أو العين أو القاف بأكثر من اللفظ بها فى تمهل أو تفخيم ، وكلما عمدنا إلى التمهل والتفخيم فقد عمدنا إلى حركة من الحركات .

لقد كان للحركات فى اللغة العربية شأن لا نحيط اليوم بجميع دلالاته ومعانيه ، ولكننا نلحظه فى الإعراب وفى غير الإعراب ، ونلحظه فى أول الكلمة ووسطها كما نلحظه فى نهايتها واتصالها بغيرها ، ونرى أن الاستغناء عنه يلجئنا إلى تغير بنية الجملة كلها كما تتغير بنيتها أحيانا من فعلية إلى اسمية ، ومن ترتيب مختلف إلى ترتيب مطرد فى جميع التراكيب .

إن الاختلاف بين الدلالة على المرة والدلالة على الهيئة إنما يرجع إلى حركة فى أول الكلمة لا فى آخرها حيث يتصل الكلام أو ينفصل بالتسكين والإعراب .

فالمِشية بكسر الميم تدل على هيئة المشى ، والمَشية بفتح الميم تدل على المرة ، وتطرد هذه التفرقة فى جميع الحروف .

كذلك يختلف اسم الفاعل واسم المفعول من الفعل غير الثلاثى بحركة الكسر والفتح فنقول المرتضِى بكسر الضاد للدلالة على الفاعل ، ونقول المرتضَى بفتح الضاد للدلالة على المفعول ، وهذه حركة فى وسط الكلمة لا علاقة لها بإعراب آخرها ولا بتحريكه أو تسكينه ، وتلك الحركة التى تفرق بين الهيئة والمرة تلازم أول الكلمة وتدل على فارق كبير بين المعنيين ، ومثلها

الحركة التى تستخدم للتمييز بين اسم الآلة واسم المكان وبينهما فى المعنى فرق بعيد .

وعندنا أن اختلاف أبواب الفعل الماضى لم يكن مجرد اختلاف بين حركات متساوية فى الدلالة ، لأن هذا الاختلاف فى الحركة يقترن بالاختلاف فى صيغة المصدر على قاعدة تطرد أو يوشك أن تطرد بين جميع الأفعال ، فليس قصارى الاختلاف بين كتب وعلم وكرم وفتح أنها كسرة هنا وفتحة هناك ، ولكن الاختلاف يتجاوز ذلك إلى المصادر وأسماء المصادر ، ويكاد الاختلاف فى حركة الفعل نفسه يسبق إلى اللسان العامى للدلالة على الفرق بين الصفة الملازمة والصفة العارضة ، فإن العامى يقول طالت المسافة ويقول طول الصبى بكسر الطاء أو ضمها إذا اختلفت عنده دلالة الطول .

ويحدث دائما عند إهمال الإعراب أن يتغير بناء الجملة من فعلية إلى اسمية ، فاللغات الأوربية لا تعرف الإعراب ولا تعرف الجملة الفعلية كذلك إلا فى بعض الحالات النادرة كحالة المفاجأة وما إليها .

وهذه الجملة الاسمية تظهر فى اللغة العربية نفسها على ألسنة العامة الذين يهملون الإعراب ، فهم يقولون : « محمد سبق زيدًا » لأنهم لا يقولون مع العربى الفصيح « سبق محمد زيدًا » أو سبق زيدًا محمد » معتمدًا فى مخالفة الترتيب عل دلالة الحركات .

ومن هذا المثال وغيره يتضح لنا أن الإعراب له دلالة مرتبطة بتركيب الجملة فى اللغة ، بحيث تحتاج إلى تركيب ينوب عن الإعراب كلما أهملناه .

* * *

اجتمع المعهد الملكى البريطانى سنة ١٩٢٨ فخطب فيه السير ريشارد باجيت Paget والأستاذ جسبرسن Jsp-rsen عن تطور اللغة من التأخر إلى التقدم أو من التقدم إلى التأخر ، وكان السير ريشارد يلاحظ أن سير اللغات الطبيعى يتجه إلى الهبوط والانحدار وكان الأستاذ جسبرسن على نقيضه يلاحظ أن السير الطبيعى متجه إلى التقدم والارتقاء .

وعندنا أن عيب التفكير دائما أن يميل إلى وجهة ويستثنى الوجهة التى

تقابلها . فلماذا نقول مع السير ريشارد إن اللغات تنحدر على الدوام أو نقول مع الأستاذ جسبرسن إنها تترقى على الدوام ؟ لماذا لا نقول إنها تشتمل على عوارض التقدم فى ناحية كما تشتمل على عوارض التخلف والنكسة فى ناحية أخرى » .

فليس من اللازم على هذا أن نعتبر إهمال الإعراب تقدمًا فى لغات الهند الجرمانية وبعض اللغات السامية . وليس من اللازم أن يكون الإعراب تقدمًا عامًّا فى جميع اللغات ولكنه فى اللغة العربية ولا ريب مزية نافعة لتيسير فهم المعانى وتمكين المتكلم أو الكاتب من ترتيب العبارات على حسب المعنى لا حسب التتابع فى الألفاظ والمفردات ، وأصله راجع على ما نعتقد إلى دلالة قديمة لكل حركة من الحركات ، وإن كنا لا نعرف هذه الدلالة اليوم على سبيل اليقين ، ولكننا نعرف على الأقل أن الحركة لم تكن مهملة كما فى نشأة الكلام ، وحسبنا هذا لنستبقى القول فى تفصيل معانيها معلقًا إلى حين .

ونعود فنقول إن تطبيق القواعد العلمية على اللغة هو التطبيق الذى لا محيص عنه فى الدراسات اللغوية الحديثة ، وإن الباحث الفاضل صاحب هذه المؤلفات قد أخلص العمل فى تطبيقه لقواعده ومقاييس علمه ، وبهذا فتح الباب ولم يغلقه على مختلف التفسيرات والتقديرات ومن حق القراء أن يستزيدوه ويستزيدوا زملاءه العاملين من أمثال هذه البحوث .